جدوجبريل

حول كتاب الحداثة و القرآن للباحث سعيد ناشيد

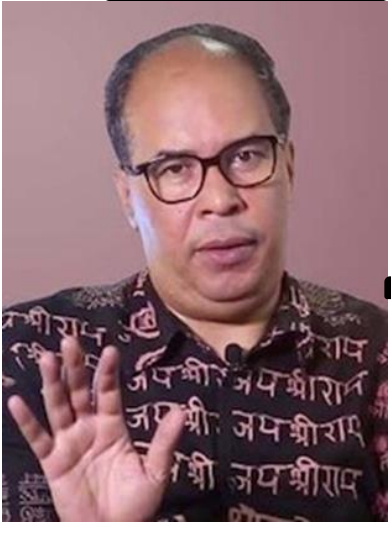

كراس إلكتروني

جدوجبريل

حول كتاب الحداثة و القرآن للباحث سعيد ناشيد

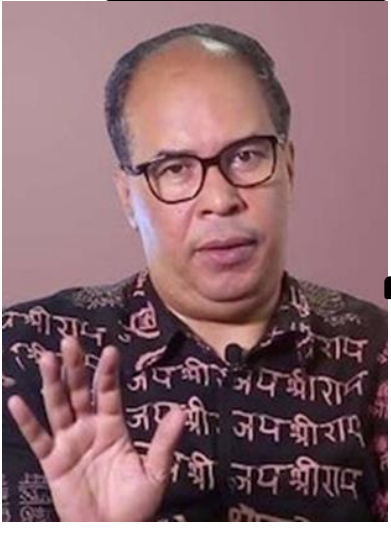

كراس إلكتروني

الطبعة الثالثة
سعيد ناشيد
الحداثة والقرآن
التنوير

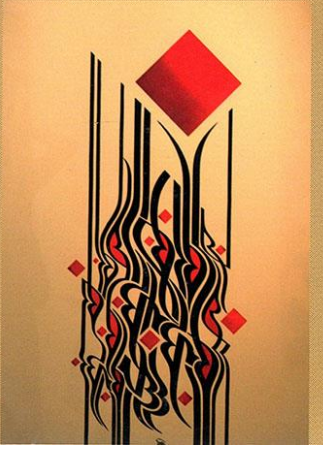

حول كتاب الحداثة و القرآن للباحث سعيد ناشيد(*)

*سعيدناشيد مفكر وباحث وكاتب مغربي مهتم بموضوع الإسلام السياسي وبقضايا التجديد الديني،نشر العديد من المؤلفات منها: (التداوي بالفلسفة وكتاب الحداثة والقرآن و"دليل التدين العاقل"، و"قلق في العقيدة" و"الوجود والعزاء".

قد يبدو أ، خيطا رفيعا يحطم مسار كتاب الحداثة و القرآن مفاده قد تكزن الغاية منه هي التصالح مع الحداثة (1),علما أن النص القرآني حسب السردية و الموروث الإسلاميين نص أزلي أ[دي ثابت, في حين أ، الحداثة طارئة متغيرة وغير مكتملة ونهائية في عرف وحسب العقل الديني الإسلامي (2)

(1) الحداثة أو العصرنة تحديث وتجديد ما هو قديم وهو مصطلح يبرز في المجال الثقافي والفكري التاريخي ليدل على

مرحلة التطور التي طبعت أوروبا بشكل خاص في مرحلة العصور الحديثة .بشكل مبسط، يمكن تقسيم التاريخ إلى خمسة أجزاء: ما قبل التاريخ، التاريخ القديم، العصور الوسطى، العصر الحديث والعصر ما بعد الحديث

(2) يقصد بالعقل الديني الأفكار والمعتقدات والتصورات وكل ما يشغل الفرد في مجالات الحياة المتنوعة..السياسية والاجتماعية والنفسية،

العقلُ في اللغة عند امسلمين؛ هو من مصدر عَقَلَ بمعنى حَبَسَ، وسُمّي كذلكَ لأنّهُ يعقلُ صاحبهُ عن التَورّطِ في المهالكِ والآثام، وقيلَ هو التّمييزُ والعلمُ. فهوَ على الوضعِ اللّغويّ، إذن، مُجرّدُ الحبسِ عن المفاسدِ المُقدّرةِ بحسبها، العقلَ، في الكتابِ والسنّةِ، قوّةُ الإدراكِ والفهمِ والفقهِ والتفكيرِ السليم.

فكيف يمكن للثابت الأزلي أن يتكيف مع المتغير و المتحول علما أن الحداثة غالبا ما تقدم نفسها كسيرورة مستدامة.

ففي مرحلة معينة لم يكن الحديث النبوي جزء من النص الديني (3) ومن المعلوم أن النبي نفسه ظل موقفه واضحا إذ قال لا تكتبوا عني شيئا

(3) جاء عند النووي : كَانَ بَيْن السَّلَف مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ اِخْتِلَاف كَثِير فِي تدوين الْعِلْم , فَكَرِهَهَا كَثِيرُونَ مِنْهُمْ , وَأَجَازَهَا

أَكْثَرهمْ , ثُمَّ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى جَوَازهَا , وَزَالَ ذَلِكَ الْخِلَاف.

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَاد بِهَذَا الْحَدِيث الْوَارِد فِي النَّهْي , فَقِيلَ : هُوَ فِي حَقّ مَنْ يَوْثُق بِحِفْظِهِ , وَيُخَاف اِتِّكَاله عَلَى الْكِتَابَة إِذَا كَتَبَ . وَتُحْمَل الأَحَادِيث الْوَارِدَة بِالإِبَاحَةِ عَلَى مَنْ لا يَوْثُق بِحِفْظِهِ كَحَدِيثِ وَقِيلَ : إِنَّمَا نَهَى عَنْ كِتَابَة الْحَدِيث مَعَ الْقُرْآن فِي صَحِيفَة وَاحِدَة ; لِئَلا يَخْتَلِط , فَيَشْتَبِه عَلَى الْقَارِئ فِي صَحِيفَة وَاحِدَة . وَاللَّهُ أَعْلَم .ا.هـ.

"شرح مسلم" (18/129-130).

الكتابةُ مِنْ أدواتِ حِفْظِ العِلْمِ المُهمَّةِ؛ ولذا حَرَصَ الصَّحابةُ عليها فيما أَمْكَنَ كتابتُه مِنَ الوحي.

وفي هذا الحديثِ يقولُ أبو سعيدٍ رَضيَ اللهُ عنه: "اسْتأذَنَّا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الكِتابةِ"، أي: طَلَبْنا الإذنَ منه في كتابةِ أحاديثِهِ وكلامِهِ "فلَمْ يَأذَنْ لنا"، أي: مَنَعَهم مِنَ كِتابةِ أحاديثِهِ،

ولكنْ في الصَّحيحَينِ أنَّه لَمَّا خطَب رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ فتْحِ مَكَّةَ، قامَ رجلٌ مِن أهلِ اليَمنِ فقال: اكتُبْ لي يا رسولَ اللهِ، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: اكتُبوا لأبي شاهٍ"، وهذا أمرٌ صريحٌ بالكتابةِ، وفي الصَّحيحَينِ أيضًا أنَّه لَمَّا اشتدَّ وجعُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: "ائتوني بكِتابٍ أكتبْ لكم كِتابًا لا تضلُّوا بَعْدَه"؛ فقيل: كان ذلك النهيُ عن الكتابةِ في بدايةِ الأمرِ، ثُمَّ اسْتَقرَّ الأمرُ على مشروعيَّةِ كتابةِ الحديثِ؛ فيكون الإذنُ في الكتابةِ ناسخًا، والنهيُ منسوخًا، وكان النهيُ لعِلَّةٍ، فلمَّا زالتِ العلةُ أُذِنَ في الكتابةِ؛ فربَّما كان المانعُ منه هو خَشيةَ اخْتِلاطِ حديثِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالقرآنِ، فنَهى عن كِتابتِهِ إلَّا في أفرادٍ وحوادثَ قليلةٍ لمُحتاجٍ ونَحوِهِ، فلمَّا كَمَلَ الوحيُ انْتَفَتْ تِلْكَ العِلَّةُ.

إن فحوى السردية والموروث الاسلاميين أضحى يبدو كأنه لا يتناسب مع العصر وقد يجعل الأجيال الحديثة متخاصمة مع أنفسهم ويبدو أن الكثير منهم يمجدون الموت وكراهية الآخر- منطق الولاء و البراء(4)- ويجدون أنفسهم متخاصمين مع العالم الذي يحيون فيه وقد يصل الامر ببعضهم أن يجدوا انفسهم مجبرين على رسم مسافة بينهم وبين دينهم علما أن من طبيعة الإسلام جعل وجبر المسلمين على الالتصاق بالنص المقدس فكيف أن تتوفر مسافة أو مساحة النظر هذه ؟

(4) فالولاء والبراء من آكد أصول الدين، ومعناه موالاة المسلم إخوته المسلمين ومحبتهم ومحبة الدين، وبغضه للكفار والبراءة منهم ومن أعمالهم ومعبوداتهم وعاداتهم، وحب المؤمن العاصي بقدر طاعته، وبغضه بقدر عصيانه. من مظاهر موالاة الكفار: التشبه بهم في الملبس والكلام وغيرهما... إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين ومدحهم والذب عنهم.. الاستعانة بهم والثقة بهم وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين

واتخاذهم بطانة ومستشارين.. مشاركتهم في أعيادهم أو مساعدتهم في إقامتها أو تهنئتهم بمناسبتها أو حضور إقامتها... التسمي بأسمائهم.. الاستغفار لهم والترحم عليهم

من هنا يتحفظ سعيد ناشيد عن عبارة طبيعة أو جوهر الدين وذلك بعد اعتماد مدخل أ، حوار الله مع إبراهيم مبني على الشك(5) علما أن إبراهيم أبو الانبياء فما بال الانسان العادي ويرى المؤلف أن الذين يزعمون أن للدين جوهر ثابت هم في الحقيقة يعملون على عولبة الدين في أحكام كانت تصلح للقرون الوسطى ولم تعد صالحة اليوم

(5) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ- البقرة/260

المراجع السردية الاسلامية لا ترى في هذا شك وذكرت لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ ، أَسْبَابًا، مِنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُمْرُوذَ: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أَحَبَّ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ فِي ذَلِكَ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ، وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهِدَةً

فَقَالَ: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)" فهو مؤمن بحصول الإحياء قطعا، ويريد أن يرى كيف يحصل. ولهذا أراه الله صورة هذا الإحياء.كل المراجع تقر بعدم حصول الشك، من وجهين: من جهة أنه لو كان شاكا لكان السؤال بـ (هل)، فيقول: هل تحيي الموتى؟ ولكنه سأل بـ (كيف) ، فقال: (أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى) ؛ فهو مؤمن بحصول الإحياء قطعا، ويريد أن يرى كيف يحصل. ولهذا أراه الله صورة هذا الإحياء.ومن جهة اخرأن الله سأله (أو لم تؤمن؟) فلما أجاب ببلى صدقه على ذلك.

كثيرة هي المفاهيم التي بني عليها الفكر الديني الاسلامي قد نشأت في مرحلة كانت مطبوعة بالتوسع الامبراطوري.

فكيف يمكن للمسلم تجسيد بكرة التصالح مع حضارات عالم اليوم على أرض الواقع؟

إجابة ينطلق سعيد ناشيد من فكرة أن أفعال الأمر الواردة في النص القرآني لا يعني المسلمين في كل مكان وزمان وإنما تهم مخاطبين و مأمورين محددين في الزمان والمكان و السياقو أسباب النزول

ضرب الباحث أمثلة منها الآيات التي تدعو إلى الهجرة إذ إن مفعولها قد انتهى مباشرة بعد فتح مكة رغم أنها مازالت حاضرة في النص القرآني وقد فهم من هذا ن لكل أفعال أمر واردة في النص القرآني مأمورين محددين في الزمان والمكان إلا أن الخطيئة الأصلية هي أن العقل الفقهي الإسلامي عمل على تحويل أفعال الأمر إلى قوانين عامة نهائية صالحة لكل زمان و مكان علما أنهم فشلوا في هذا باعتبار أن كل ما حصلوا عليه أحكام ترجيحية مختلفة متضاربة أحيانا كثيرة. وفي نهاية المطاف لم يحصلوا على قانون علما أن القانون الإسلامي حسب العقلية الزئبقية الترديدية التبريرية تقول أن القانون الشرعي يصاغ انطلاقا من وارتكاز على وقائع و نوازل وأحداثولكن لايجيب على ناولة بعينها وإنها يعطي أو يمنح عبارة

صورية تحاول أن تجيب على مختلف الوضعيات المتشابهة

ويرى سعيد ناشيد أن القرآن ليس قانونا وإنما منح أجوبة على أسئلة و نوازل محددة في سياق زمانها و مكانها.

ويخلص إلى القول إذا عدنا إلى آيات الجهاد و القتال نجد أن أغلبها نزل في مرحلة انتقالية بين الهجرة و فتح مكة وهي فترة كانت مطبوعة بالشعور بالمظلومية والرغبة والسعي للعودة إلى مكة.

بعد فتح مكة لم تنزل آيات تتعلق بالجهاد والقتال. علما أن الرأي الذي ظل سائدا أقر أن الجهاد يبقى قائما (6)

.

(6) تقر السردية الاسلامية السائدة أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية شاملة للناس كافة عربهم وعجمهم، وقد أسفر فتح مكة عن دخول القبائل العربية في الإسلام، فتوجه الرسول لنشر الإسلام في البلاد المجاورة لجزيرة العرب، ولتبليغ دعوة الحق إلى أهلها. وقد كان تشريع الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية تدريجياً، من أول بعثة النبي إلى أن اشتد ساعد الدولة الإسلامية بعد فتح مكة،

وكان فتح مكة منعطفا قويا في سياسة المسلمين الجهادية، فقد أصبح لدى المسلمين القدرة على مواجهة الباطل وأهله في كل مكان، وذلك بعد دخول الناس في الإسلام أفواجاً، وتحولهم إلى جنود تسير ضمن كتائب الإسلام وتسيح في الأرض لنشر دعوة الإسلام، وبنزول سورة التوبة وضعت الأحكام النهائية للعلاقات بين الدولة الإسلامية ودول الكفار، واستقر حكم الجهاد على إعلان البراءة والحرب على من بقي منهم على شركه، ووجوب قتال من لم يقبل دعوة الإسلام سواء اعتدى أم لم يعتدِ، ولم يستثن من هذه المرحلة من القتال سوى المعاهدين.وكذلك أهل الكتاب، نزل فيهم قوله تعالى :﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾. فلما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى.أمر الله المؤمنين بأن يقاتلوا الكفار الأول فالأول، والأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ الرسول بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح مكة والمدينة والطائف واليمن، شرع في قتال أهل الكتاب.

و تساءل الكاتب:

هناك أسباب نزول الآيات علما أن القرآن كلام الله وآخر كتاب سماوي

للبشرية والحالة هذه فهل يحتاج الله لناولة أو سؤال أو سياق لينزل كلمته الأخيرة؟

ويجيب :حاولت إيجاد مخرج عقلاني لذا قسم القرآن إلى :

- الوحي الرباني،
- القرآن المحمدي- الخطاب القرآني،
- المصحف العثماني،

يبدو أن الكاتب سعى إلى فك العقدة مع النص القرآني، فالمسلمون يقدسون هذا النص إذ يعتبرونه أوامر لكل الأجيال إلى آخر الزمان وهي أوامر تظل مقدسة ما دام الله أمر بها، فما هو المخرج من هذه العقدة إذ سيظل الحال على ما هو عليه وسيعثر المتشددون دائما على نص قرآني يرتكزون عليه ويرونه أمرا إلهي

اعتبر سعيد ناشيد أن الأصل في الخطاب القرآني هو الوحي الرباني أي سور وحيانية تلقاها النبي بقلبه – وهذه

مجرد فرضية- لكن ذات معقولية وصلاحية وتنفع للإجابة على الكثير من الظواهر بأقل ما يمكن من السقوط في التناقض

وقد يفهم من هذا الطرح كأن المؤلف ينطلق من الآية القرآنية كما هي واردة في المصحف الذي في حوزتنا اليوم طأنها ليست هي الوحي الأصلي ولكن وحي – مادة خام عن طريق فكرة تلقاها الرسول بقلبه ثم صاغها بلغة قومه لجعلها مفهومة لديهم و هو يتصور أن القرآن مراحل:

- مرحلة الوحي: مادة خام
- مرحلة النص المحمدي: تتداخل فيها مخاوف البشر وتجاربهم وتمنيهم وتجعلها تنساب في هذا النص
- ثم يأتي المصحف العثماني الذي جمع كل هذه الأمور وتركيبها بطريقة ما .

فما يبدو واضحا نسبيا أن الكاتب يعتبر أ، هناك 3 مستويات:

- الوحي الرباني وقد لا نعرف عنه شيء اليوم- إلهام تلقاه النبي عبر قلبه
- ثم صاغه بلغة بشرية، انعكست فيه العوامل النفسية والثقافية والاجتماعية – وهذا ما يسميه بالخطاب القرآني
- ثم المرحلة 3 :سيتحول الخطاب القرآني إلى نص مكتوب مدون طبعا لم يترك النبي النص القرآني مدون في مصحف نهائي إذ ظل خطابا متناثرا محفوظا في الصدور – الذاكرة- ومكتوب بعضه على الوسائل المتاحة زمنئذ فكان الرهان على الحفظ بشكل كبير.

وعرفت اللغة والخط العربيين تطورا مطردا – إذ كانا وقتئذ في بداية بدايات مسارهما التطوري، كما تطورت الدولة،

كل هذا انعكس بشكل أو بآخر في النهاية على إعداد المصحف الإمام الذي بين أيدينا اليوم.

علاوة على هذه الأبعاد هناك أيضا ما يمكن نعته ببعد المتلقي – فهم النص وتفسيره وتأويله- وهذه في حد ذاتها إشكالية وقد تتجلى أحيانا كمعضلة في السردية والموروث الاسلاميين لقول سعيد ناشيد:

نتكلم عن النص الديني وهذا المفهوم غير محسوم حتى الآن إذ ما المقصود بـالنص الديني؟ هل المقصود به هو الخطاب القرآني زائد المتن الحديثي وربما أيضا زائد متن الصحابة والتابعين. والأدهى من كل هذا فهناك من يعتبر حتى الآن أن بعض الآيات التي سقطت من المصحف – غير موجودة في المصحف- آية الرجم علينا العمل بحكمها ويندرج في هذا المضمار ما نسخ لفظه وبقي حكمه.

يبدو أن هناك وظيفتان أساسيتان للنص القرآني اليوم

- وظيفة تعبدية أساسية و حاسمة. إن معظم المصلين اليوم لا يتقنون العربية وليس من المهم أ، يفهم أو لا يفهم ما يقرأ المصلي في صلاته
- وقد ينطلي هذا أيضا على جملة من القيم الوجدانية – كظم الغيض العفو عن الناس .....- وهي قيم لا تخل في التشريع و هذه إشكالية في عيون البعض

مرفقات

سعيد ناشيد.. كاتب مغربى له مجموعة من الإنجازات والمؤلفات أبرزها

بااحث مغربي في الفلسفة والإصلاح الديني، ورئيس مركز الحوار العمومي والدراسات المعاصرة (الرباط). صدر له عدد من الكتب، منها "التداوي بالفلسفة"، و"دليل التدين العاقل"، و"قلق في العقيدة" و"الوجود والعزاء". له مساهمات في بعض المؤلفات الجماعية، من بينها: كتاب بالإنجليزية تحت إشراف المستشرق البريطاني ستيفن ألف، بعنوان Reforming Islam:Progressive Voices From the Arab Muslim World، 2015.

- **الاختيار العلماني وأسطورة النموذج**
- **التداوي بالفلسفة**
- **الوجود والعزاء**

من مقالاته

كيف نتعامل كحداثيين مغاربة مع القرآن الكريم؟

يعترضُ علينا البعض باستعمال آيات قرآنية تبدو كأنها تناقض قناعاتنا الإنسانية والحقوقية، وقصدُهُ إحراجنا بـ"النص المقدس". كيف نواجه الموقف؟ هناك منّا من يضطرّ إلى إنكار الدين ابتغاء إنكار الحجّة، وهذا خيار شخصيّ لا يفيد كثيرًا في تغيير عقلية المجتمع؛ وهناك منا من يلجأ إلى التأويل لحمل النص على غير ظاهره، وهذا خيار متاح منذ المعتزلة قديما، إلى الجابري مؤخرا؛ لكن البعض الآخر -وأنا واحد منهم- يرفض الدخول في نزال التأويل طالما قواعد النزال مختلة ابتداء، وبالتالي يجبُ العودة إلى سؤال المبدأ، ما وظيفة القرآن أوّلا؟

بإيجاز أقول، للقرآن وظيفتان:

الوظيفة الأولى للقرآن هي الوظيفة التعبدية، بحيث نصلي به، ونقرؤه قراءة تعبدية. أثناء العبادة لا يهم المعنى ولا اللغة. فمعظم مسلمي العالم ليسوا عربا ولا يفقهون شيئا من العربية، إلا أن قراءتهم للقرآن بالعربية في العبادة عمل مأجور.

الوظيفة الثانية هي استنباط القيم التي تخاطب الإنسان في شموليته بدل استنباط الأحكام التي تخاطب بشرًا محدّدين بسياق التنزيل، ومعرّضة للنسخ والتعطيل. إن القيم الأساسية التي تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ولا تقبل التعطيل والنسخ والتقييد مهما كانت الظروف لهي قيم الرحمة، المحبة، الحكمة، كظم الغيظ، العفو عن الناس، وما إلى ذلك.

إننا كحداثيين مغاربة نعتبر القرآن الكريم تراثا روحيا إنسانيا ينبغي أن يحظى باحترام الجميع، لكننا ينبغي أن نحميه عن نوعين من الاستعمال:

الاستعمال الإيديولوجي في الصراع من أجل السلطة. وهو الاستعمال الذي كان ينتهي إلى الفتن على الدوام، منذ فتنة التحكيم في عهد علي ومعاوية، إلى فتنة "القرآن دستورنا" في سياق كان يسمى بـ"الربيع العربي."

الاستعمال السحري الذي يسعى إلى التأثير على العلاقة السببية في الطبيعة، وتدمير أسس الفكر العلمي، من قبيل خرافات الرقية، والصرع، وطرد الأرواح الشريرة.

مجمل القول إن المحتجين علينا بنصوص القرآن، كثيرًا ما ينطبق عليهم قول علي بن أبي طالب، "كلمة حق يراد بها باطل". وبهذا القول وجب التذكير.

مَا نَتَعلّمُهُ مِن سِيُون أسِ◌ِ◌يدُون وما تَعلّمْناه

سيون أسيدون.. مُناضلٌ يساريٌ مَغربيٌ، رجلٌ في مُنتهى النبل والنزاهة، مُثقفٌ من أصول يهودية، وإن كان هو نفسه، لا يعتقد بأن للأصول الدينية أية أهمية في تحديد قيم المواطنة.

فالرجل داعيةٌ كبيرٌ لقيم الثورة الفرنسية وفلسفة التنوير، لم يقع في غواية المُناخ الثقافي العالمي المُعادي للحداثة؛ وهكذا كان وظل دائماً من بين قلة قليلة من المُثقفين من أصول يهودية، والذين لم ينجذبوا إلى وعود ما بعد الحداثة الغراء، يُضاف إسمه إذن إلى طينة كبار الفكر الإنساني الحر، من قبيل نعوم تشومسكي وجورج سوروس.

ولست بأي حال من الأحوال، أريد الوقوع في أسطورة الأصول الثابتة والقول بأن هؤلاء المُفكرين اليهود موجودون فقط لأنهم يُمثلون حالة مُضادة لأصولهم الدينية أو الثقافية، فذلك هو نفس ما يقوله بعض الغربيين عن المُسلم الحداثي والعلماني، حين يقال عنه بأنه حداثي أو علماني ضداً على أصوله الدينية والثقافية. فالأصُول نفسها ليست أكثر من تأويل يخدم مَطامح مُحددة في زمن مُحدد، فطموحنا هو ما يصنع أصولنا.

المُهم أنني أود القول بأن أسيدون، كما رأيته وأرَاه دائماً، امتدادٌ أصيلٌ للمثقف المغربي الأصيل، والمنحدر من تقاليد العقلانية الرشدية، لفيلسوف قرطبة، يا زمان الوصل بالأندلس!! فهل كانت في روح ابن رشد المنفوخة في التاريخ المغربي، مَناعة للمثقف

المَغربي والذي ظل عموماً، مُحصناً من مَوْجات ما بعد الحداثة ومُترفعاً عنها؟ نُفكر أيضاً، في الجابري، العروي، أومليل، حميش وآخرون أعتذر لهم مسبقاً ومن دون قيد ولا شرط.

ابن رشد.. هذا العقل المُتعب والمُنهك داخل الزمن المغربي، بل والمغاربي أيضاً هذا العقل الذي ربما قيد له النظام التعليمي التونسي أن يعاود الإسراء بين نخبة جديدة وطليعية من أبناء العهد التونسي الجديد... ربما يكون أعنف انتقادٍ تعرض له ابن رشد، هو من طرف الفيلسوف المَرجعي للمحافظين الجُدد، ليو شتراوس، ويُمكن العودة بهذا الخصوص إلى مُؤلفه الشهير: ما هي الفلسفة السياسية؟ وليس في نيتي أن أثقل الحديث عن سيون أسيدون بأي تفاصيل حول مناولة ليو شتراوس للمثن الرشدي، على الأقل ليس الآن.

لم ألتق بسيون أسيدون سوى مرة واحدة، قبل حَوالي عقد، كانت كافية لتحديد الموضوع الذي ظل يؤرقني خلال السنوات الماضية. مُناسبة اللقاء كانت حين استدعيناه لإلقاء كلمة ضمن مُؤتمر لتأسيس الفرع المغربي لإحدى مُنظمات ما بات يُعرف بحركة العولمة البديلة. لم يكن عملنا في المستوى المطلوب، كنا نعكس أزمة استنبات قيم المُواطَنة في بيئات تقوم على التشرذم والزعامات الفردية.

وقد أثارني في كلمته، أنه كان حريصاً على توجيهنا إلى عدم الإنزياح عن أفق التنوير وقيم الثورة الفرنسية، وهو التوجيه الذي لم أفهمه وقتها كما كان ينبغي، لكنني بعد أن توصلت، ومن أصدقاء فرنسيين، بالعديد من الكتب، الوثائق والمنشورات التي أصدرتها الحركة التي قصدنا تأسيسها، أدركت بالتحديد ما كان سيون أسيدون ينوي تحذيرنا منه.

لقد لاحظت الحُضور القوي لفلاسفة ما يُسمى باليسار النيتشوي، دِيريدا، بُودريار، أونفراي وغيرهم، داخل حركة العولمة البديلة، ولاحظت أيضاً، أن ثمة اتجاه يساري عالمي وقوي، يجعل نقد الرأسمالية العالمية، أو العولمة الرأسمالية، امتداداً لتقاليد نقد الحداثة والعقلانية الغربية والمنحدرة بدورها، من تقليد ثقافي ألماني، بحسب ما يُلاحظه الفيلسوف الألماني هابرماس.

إنها اليوم، تقاليد انتقلت إلى اليسار العالمي، واستدمجها داخل وعيه وأدبياته، لكنها تلتقي استراتيجياً مع رؤية المُحافظين والمحافظين الجُدد، ومع رؤية الأصوليات الدينية المُناهضة للحداثة ومن كافة الديانات.

كان تحذير سيون أسيدو، قد مَنَحتني نباهة مُبكرة مكنتني من أن أتعامل نقدياً مع أدبيات مُنظمات اليسار العالمي، والمَطبوعة في الغالب، بالنزعة المُعادية للحداثة، لكنني اكتشفت أيضاً، أن الرجل، هو من بين المناضلين الأوائل والذين اختاروا موقع مُناهضة الحركة الصهيونية باعتبارها جزء لا يتجزء من قيم الثورة العالمية المُعادية للحداثة والتنوير.

لكن سؤالاً بات يستبد بالدهن ويقلق البال، وهو هل ثمة خلفية ثقافية تربط اليمين اليهودي والحركة الصهيونية بمشروع الثورة العالمية المضادة للحداثة والتنوير؟

ليس المقصود مرة أخرى، التنقيب الأسطوري عن الجواهر الثابتة داخل الثقافات، فقد قلنا أن الأصول والجواهر لا تعدو كونها مجرد تأويل، لكن الباعث على السؤال، أننا نفترض دائماً وجود مَصالح مُعممة، أو تم تعميمها في ظروف معينة، وتفرض طغيان نوع من مُسلمات التفكير المُتعارف حولها، لأصول ومرجعيات ثقافية أو دينية مُحددة.

تقودنا هذه المُلاحظة، إلى أن نخاطر بالإنغماس في بعض الخلفيات الثاوية داخل الأصول الدينية لليمين الديني اليهودي، ورُبما تمنحنا علمانيتنا الأصيلة والأصلية، مشروعية الدراسة الموضوعية للأديان وللاتجاهات الدينية الفاعلة في السياسية الدولية اليوم، ومع ذلك ولكي لا نثقل مرة أخرى حديثنا عن سيون أسيدون.

بتفاصيل غارقة في تحليل اللاوعي الديني الجماعي، سنكتفي بظاهرة دينية هي أول ما يقفز إلى أنظار الباحث عن مُمكنات الحداثة والعلمانية داخل الفكر الإسرائيلي الديني. ومرة أخرى فإننا نربأ بأنفسنا عن الإنجرار خلف الدعاية التي تحاول أن ترينا إسرائيل كدولة حداثية أو علمانية.

بلغنا الحديث عن حَنُوكة.. وحنوكة هي من بين أهم الأعياد الدينية التي يحتفلُ بها الشعب اليهودي، إذ أنه مرة كل سنة، وطيلة ثمانية أيام مُتتالية، يتبادل اليهود الهدايا والزيارات ويُشعلون الشمعَدان المُقدس في بيوتهم، ويُقيمون الأدعية والصلوات؛ وليس في ذلك ما يثير الأسئلة المقلقة، لولا أن الأمر يتعلق بعيد يُخلد لذكرى انتصار اليهود على اليونانيين خلال القرن الأول قبل الميلاد.

ليس الانتصار اليهودي على اليونانيين، هو انتصارهم الوحيد في التاريخ، لكنه الانتصار الوحيد الذي ما يزالون يحتفلون به ويُقدسونه، بل ثمة في الكتاب المُقدس، سفر كامل، تحت مُسمى سفر المُكابيين، وهو الإسم الذي اصطلح على رجال الدين اليهود والذين قادوا معركة النصر على اليونانيين، والمُكابي في الأصل، كلمة يونانية تعني المطرقة.

فهل بوسعنا أن ننسى بأن المطرقة هي الأداة التي وضعها نيتشه بين يدي زارادشت، لتفكيك وتقويض المشروع والحداثي العقلاني الغربي ومُناهضة فلسفة التنوير الأوروبي!

لكن، لماذا هذه الأهمية الدينية لانتصار عسكري قديم، قد لا يبدو للوهلة الأولى أنه مُفيد في الحاضر ومُفيد لهذا الحاضر؟

باقتضاب شديد –وقد نعود إلى التفاصيل في مناسبة لاحقة- فأمَامَ الغزو اليوناني القديم لأرض إسرائيل، لم يَصطدم اليهود بمُجرد ثقافة وثنية أو قائمة على الأساطير الوثنية، ومِما كان يُمكن لأتباع اليهودية أن ينظروا إليه نظرة استعلاء، تحفظ لهم فرضية شعب الله المُختار؛ فهذه المرة، وجدت ألواح موسى ومزامير داوود، نفسها أما تحدي حضاري جديد وغير مسبوق، فقد اضطرت لمُجابهة منطق أرسطو وهندسة أوقليدس وفلسفة سقراط.

وباختصار فقد وجد الشعب اليهودي نفسه في مُواجهة تحدي المشروع العقلاني الهيليني، إنه التحدي الذي ما يزال مُمتداً إلى اليوم، امتداد العقلانية الغربية، وهذا رغم النصر العسكري القديم والمحدود أيضاً في الزمان والمكان، ومن هنا أهمية الاحتفال بحنوكة بالنسبة لليهود، سواء كانوا في إسرائيل، أو كانوا داخل المجتمعات الغربية، ولا أدل على أهمية العيد من كون الرؤساء الأمريكيين يمنحونه أهمية بروتوكولية بالغة.
لقد كتب رئيس المؤتمر اليهودي الكندي لمنطقة كيك، جوزيف غاباي، يقول: "إن الرغبة في اختزال الإنسانية في مُجرد مُعادلة، ونفي البُعد الروحي، ذلك هو ما يُسمى في التقليد اليهودي بالظلامية، وأما تأويل الآية الثانية من سِفر التكوين "وقد كانت الظلمة على وجه البسيطة"، فإن المقصود بالظلمة هو زمن اليونانيين.

حين ينتقد ليو شتراوس، فيلسوفُ قرطبة ابن رشد، فلأنه يرى فيه امتداداً لأثينا اليونانية، وليس لأورشليم المُكابية، إن ليو شتراوس يعرف إذن، ماذا يقصد، إنه يريد من الحضارة المُعاصرة أن تتخلص من التقليد الأنطولوجي الإسلامي كما طوره ابن رشد، والقاضي بالفصل بين المُستوى الإلهي والمستوى البشري، بمعنى بين الله والتاريخ.

وهكذا فهمتُ في المُقابل، إلى أي حد أن سِيُون أسيدون، رفقة مُثقفين ومُناضلين مغاربة من أصول يهودية، لا يقف إنجازهم عند حدود رفض الذهاب إلى إسرائيل لنصرة اليمين الإسرائيلي المُتطرف، كما فعل بأسف، مئات من اليهود المغاربة، وقد صادفت الكثير منهم بمدينة فاس المغربية، والتي أوْدَعَ فيها ابن رشد روحاً مَشروخة، أجدهم أحياناً، مُسربلين بلباس اليمين الإسرائيلي المُتشدد.

هؤلاء بالذات، كان من بينهم من يُذرف دُموع الذكريات الجميلة وهو يُجيل بصره في إحدى أزقة المدينة العتيقة، أرى في عَبراتهم براءة الإنسان قبل أن تفسدها يد الإله، وقبل أن يتدخل الإله في كل تفاصيل حياة البشر...

سيون أسيدون، لم يُقرر الوفاء لأرضه، ولمدافن أجداده المغاربة فقط، وإنما فعل الأهم، الوفاء للروح الرُشدية المغربية والتي كدنا نخذلها جميعاً، إنه لم يقرر فقط، عدم التنكر لمغربيته، وإنما قرر أن يُعلمنا كيف نكون مغاربة بالفعل، ومنه نتعلم اليوم كيف نكون كذلك أو لا نكون.

الفتنة والإصلاح([1])

سأنطلق - بعد إذنكم - من حكاية هي من وحي تجربتي الحياتيّة السّابقة، عساني أفتح بها شهيّة الإنصات، وحين أقول حياتي السّابقة؛ فلإدراكي أنّ الحياة حيوات تتخلّلها ميتات، بعضها سابق، وبعضها لاحق، والأهمّ عندنا أن نتحمّل كلّ الميتات بحيويّة وقناعة، وأن نعيش كلّ الحيوات بكثافة واقتناع، ولأنّني أوشك - بهذا البيان الوجوديّ - أن أنسى الحكاية - وهذا لا يليق - سأعود إليها حالًا، وكما يقال: العود أحمد.

في فترة مراهقتي - وهذا ممّا لا أزال أذكره جيّدًا - كنت كلّما أُغضبتُ أمّي في أمر من الأمور، جاء ردّها بترديد الآية القرآنيّة الآتية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التّغابن: (14)]، غير أنّني ضقتُ ذرعًا بحجّتها المتكررة بلا كلل، فقرّرت أن أسكتها باعتماد نفس السّند الّذي تشهره في وجهي، فقلت لها: ما هكذا يُقرأ القرآن يا أمّي، لا بدّ أن تتابعي القراءة، ولا تتوقّفي عند {ويل للمصلّين}، فهذا لا يجوز، ثمّ أحضرتُ المصحف وتابعتُ القراءة بنفسي جهرًا، عسى أن أعثر بين ثنايا العبارة عن مخرج أو متّسع، فبدأتُ أقرأ} :**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] {**التّغابن: (14)]، فأجابتني بنبرة صوت مرتفعة: لاحِظ أنّ فعل الأمر - هنا - واضح وصريح) **احذروهم**(، فلا يمكن لله أن يأمرنا بفعل شيء محدّد، ثمّ يكون فعل الأمر زائدًا عن الحاجة، أو بلا أي معنى، ثمّ عليك أن تتابع القراءة بدورك فلا تنكر عليّ ما تمنحه لنفسك، تابعتُ متهيّبًا مرتابًا، وأنا أواصل جهرًا قراءة ما تبقّى من العبارة، إلى أن بلغتُ الآية الموليّة: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التّغابن: (15)]، قالت: صدق الله العظيم، هل تسمع؟ إنّه يقول: {أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، فما معنى الفتنة هنا؟ وقتها لم أعد أرى أمامي من مخرج سوى أن أغلق المصحف وأضعه جانبًا، قبل أن أواجهها بشيء من القسوة: لو كان قلبك طيّبًا يا أمي لما انتبهتِ إلى هذه الآية بالذّات؛ إذ هناك آيات أخرى كثيرات تحمل معان أخرى، فلماذا انتبهت إلى هذه الآية بالذات؟ أجابتني بهدوء غير معهود: ها أنا قد انتبهت، فأين الخطأ؟

نعم، هذا هو السّؤال: أين أخطأت أمّي إن كان ثمّة من خطأ؟

الّذي فهمَته أمّي من الآية؛ هو أنّ الله يأمرها بأن تحذر منّي، طالما أنّ فعل الأمر الوارد في الآية صريح وفصيح) **احذروهم**(، وعلّة التحذير واضحة بلا لبس) **أولادكم فتنة**(، وفي النّهاية نجد أنفسنا أمام مفارقة صارخة.

ما هي هذه المفارقة؟

إذا كان ضمن مقاصد الدّين - والدّين الإسلاميّ تحديدًا - تمجيد الأمومة، وهذا من الواضحات؛ فالنّتيجة هذه المرّة أنّ أمي يجب عليها أن تحذر منّي، فيبدو - هنا - التّناقض صارخًا.

لكن، ما معنى أن يكون ثمّة تناقض؟

معناه - بكلّ بساطة - أن ثمّة خطأ ما في إحدى مراحل التّحليل، هذا ما تقوله قواعد المنطق.

إذن، لا بدّ من مراجعة البناء الاستدلاليّ، ماذا نقصد؟

ابتداء، لا بدّ من التّذكير بأنّ التّناقض الّذي يزعج العقل البرهانيّ لا يزعج العقل الإخباريّ، لماذا؟ لأنّ المركز الحسّيّ للعقل الإخباريّ هو الأذن، والأذن ميّالة بطبعها إلى التّصديق والتّسليم، لذلك؛ اعتدنا على ربط السّمع بالطاعة، فنقول بالجمع والإجمال: "سمعًا وطاعة"، لذلك أيضًا؛ يكفي أن يقال: "عن فلان بن فلان أن فلانًا قال"، حتّى تميل الأذن إلى التّصديق وفق طبائع العقل الإخباريّ، أو يكفي أن يقال بلغة الشّيوخ المعاصرين، "حدّثني ثقة"، أو "حدثني أحد الثقاة"، حتى تميل الأذن المجبولة على التصديق إلى تصديق الخبر بعقل معطل لا يعمل. ثم إنّ الأذن قد تقبل بروايتين متناقضتين، وتترك العهدة على الرّاوي في آخر المطاف، بلا مشكلة. أما المركز الحسي للعقل البرهاني فهو العين. وإذا كانت الأذن ميّالة إلى التّصديق، فإنّ العين ميّالة إلى التّدقيق.

ما مناسبة هذا التّذكير؟

مناسبته؛ أنّ موروثنا الدّينيّ قد استند إلى العقل الإخباريّ جملة وتفصيلًا: الرّواية، والعنعنة، والحديث، والأخبار، ...إلخ، على أنّنا عندما نتحدّث عن العقل الإخباريّ؛ فنحن لا نتحدّث عن عقل يروم إلى إنتاج المعرفة أو المشاركة في إنتاجها؛ بل نتحدّث عن عقل يروم إلى تناقلها فقط، فليست "الحقيقة" عند العقل الإخباريّ اكتشافًا أو إبداعًا أو ابتكارًا أو تفكيرًا متجدّدًا، لكنّها مجرّد خبر يتناقله الواحد عن الآخر.

لذلك؛ ليس مستغربًا أن نرى الموروث الدّينيّ حافلًا بعشرات التّناقضات الصّارخة الّتي لا تزعجه، ولا يبدو أنّها أزعجته في أيّ وقت من الأوقات، طالما التّناقض - كما قلنا - لا

يزعج العقل الإخباريّ، وسأعطيكم بعض الأمثلة المختصرة عن تناقضات جذريّة لم تزعج العقل الإخباريّ في الإسلام، أو دعنا نستعرضها في شكل تساؤلات مفتوحة:

كيف يستقيم وجود حديث نبويّ يقول: {لا تكتبوا عنّي شيئًا}، أو {لا تكتبوا عنّي غير القرآن}، مع وجود عدد من كتب الصّحاح، أحدها يعدّه البعض ثاني أصحّ كتاب بعد كتاب الله!؟

كيف تجتمع صورة الاختلاط الطّبيعيّ بين الجنسين في مناسك الحج - وهو أقدس مكان عند المسلمين - مع صورة الفصل الصّارم - والمهين أحيانًا - بين الجنسين في معظم مساجد المعمورة!

كيف يجتمع حديث: {النّساء ناقصات عقل ودين} مع حقيقة أن أزيَدَ من ألفَي حديث من الصّحاح مأخوذ عمّا روته عائشة، ما يعني أن نصف ديننا مأخوذ عن امرأة!؟

في واقع الحال؛ بوسعنا أن نستعرض عشرات المفارقات الّتي لا يبدو أنّها أزعجت الموروث الدّينيّ المستند إلى العقل الإخباريّ.

إذا كان ذلك هو شأن العقل الإخباريّ؛ فمن الواضح - في المقابل - أنّ الانسجام هو مطلب العقل البرهانيّ، لذلك؛ فإنّنا نعيد طرح السّؤال انطلاقًا من معايير العقل البرهانيّ:

أين أخطأت أمي؟

هل أخطأت في فهم الدّلالة اللّفظة؟ لا يبدو الأمر كذلك.

هل ثمّة من دلالات أخرى محتملة؟ لا دليل على ذلك.

أين الخطأ؟

ثلاثة أخطاء

فرضيّتنا في الموضوع؛ أن الخطأ كامن في مستويات أعمق وأشمل، وتتعدّى فهم أو سوء فهم أمّي لمنطوق آيات النّصّ القرآنيّ، الخطأ كامن في علاقة الإنسان بالقرآن - تحديدًا - أو على وجه التّحديد، ثمّة ثلاثة أخطاء استبدّت بالعقل الدّينيّ أثناء تعامله مع الخطاب القرآنيّ، ولا بدّ من العمل على استجلائها.

الخطأ الأوّل: عدّ أفعال الأمر الواردة في الخطاب القرآنيّ أوامر للمسلمين كافّة:

ثمّة اعتقاد فقهيّ مهيمن مفاده أنّ جميع أفعال الأمر الواردة في الخطاب القرآنيّ موجّهة إلى المسلمين كافّة - والمسلمات أحيانًا - في كلّ زمان ومكان، من قبيل: قاتلوا، جاهدوا، انفروا،

تربّصوا، أطيعوا، اقتلوهم، احذروهم، اهجروهن، اضربوهن، ...إلخ، هل يصمد مثل هذا الاعتقاد أمام اختبار إعمال العقل السّليم في نصوص الدّين؟ لا أظنّ، ولنبدأ خطوة فخطوة؛ إنّ الاعتقاد بأنّ أفعال الأمر تلك؛ هي أوامر إلهيّة لجميع المسلمين في كلّ زمان وكلّ مكان، سيجعل منها فرائض دينيّة، على أنّ الأمر ليس كذلك بأي حال من الأحوال؛ فإنّ الأوامر الواردة في بنية الخطاب القرآنيّ لها مخاطبون معيّنون، ومحدّدون ومحصورون في الزّمان والمكان والسّياق التّنزيليّ للمسألة أو السّؤال، نفس المبدأ ينطبق على الآية المذكورة سابقًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)} [التّغابن: (14- 15)]، فإنّ المخاطب فيها وفق السّياق التّنزيليّ للمسألة محصور - زمانًا ومكانًا - في أولئك المسلمين الّذين تأخّروا في الهجرة والالتحاق بالرّسول، سواء بسبب ارتباطاتهم الأسريّة أو التزاماتهم الماليّة، وهذا كل ما في الأمر، أمّا تعميم فعل الأمر)**احذروهم** (على كلّ الأسر المسلمة في كلّ زمان ومكان - منذ نزول الآية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها - فتلك خطيئة فقهيّة وكارثة أخلاقيّة، وإن كان تعميم الأوامر يغري العقل الفقهيّ المهجوس بالتّوسعات الإمبراطوريّة المرتبطة بالعصر الوسيط، إلّا أنّ ذلك كلّه قد ضيّع روح (أخلّ بجوهر) القرآن في الحساب الأخير.

الخطأ الثّاني: الاعتماد على ثنائيّة المكّيّ والمدنيّ، وعدّها تندرج ضمن معلوم الدّين بالضّرورة:

لقد جعل الموروث الدّينيّ مركز ثقل الخطاب القرآنيّ محصورًا في المرحلة الثّانية، المرحلة الممتدّة ما بين الهجرة والفتح، وهي المرحلة الّتي حين نستحضر روح القرآن نجدها مجرّد مرحلة انتقاليّة في حياة الدّعوة المحمّدية الّتي غايتها القصوى هي فتح مكة، بمعنى فتح "أم القرى وما حولها"، فعلًا، لعلّ الكمّ الأكبر من الآيات نزل في تلك المرحلة الانتقاليّة، غير أنّ ذلك لا يمنع من الإقرار بأنّها مجرّد مرحلة انتقاليّة في بُعدها الوحيانيّ وشرطها التّنزيليّ، في المقابل؛ فإنّ تقسيم المصحف إلى سور مكيّة وسور مدنيّة، فضلًا عن أنّه تقسيم اعتباطيّ ومضلّل ومحض اجتهاد متكلّف وغير مطابق للواقع؛ لأنّ معظم السّور - المتوسّطة والطّويلة - نزلت آياتها متفرّقة بين مكّة والمدينة، ومنها ما نزل في مكان ثالث، لا هو بمكّة ولا هو بالمدينة، أو في الطّريق بينهما ذهابًا أو إيابًا، إلّا أنّها أقحمت عنوة في جانب معين ضمن ثنائيّة المكّيّ والمدنيّ، ورغم ذلك؛ فإنّ ذلك التّقسيم الثّنائيّ قد حوّل المرحلة الثّانية، الّتي هي مجرّد مرحلة انتقاليّة، مرحلة ما بين الهجرة والفتح، إلى مرحلة مركزيّة تحت مسمّى المرحلة المدنيّة، كأنّما هي الغاية والمرمى، بدل مرحلة الفتح (الّتي هي بمثابة المرحلة المكّيّة الثّانية)، وهو الانزياح الّذي سرعان ما سيُكرّسه اختيار المسلمين للتّقويم الهجريّ، بعد سنوات عن موت الرّسولﷺ.

الخطأ الثّالث: استنباط الأحكام التّنزيليّة من القرآن بدل القيم القرآنيّة:

لقد ركّز موروثنا الدّينيّ جهده الفقهيّ على استنباط الأحكام التّشريعيّة من الخطاب القرآنيّ بدل استنباط القيم الوجدانيّة، وهذا ما ضيّع - في الأخير - روح القرآن وجوهره المكنون؛ فإنّ الأحكام أوامر مقيّدة بظرفَي المكان والزّمان، وهي تخاطب مأمورين محدّدين بالسّياق الاجتماعيّ والشّرط التّنزيليّ، مثلًا؛ إنّ الآيات الّتي تأمر بالهجرة قد انتهى حكمها مباشرة بعد فتح مكة، رغم أنّها لا تزال مثبتة في النّصّ القرآنيّ، ولا نزال نقرؤها ونتعبّد بقراءتها، إنّ الّذي يبقى ساري المفعول ليس الأحكام التّشريعيّة؛ إنّما القيم الوجدانيّة الّتي هي روح الخطاب القرآنيّ في آخر المطاف، تلك الرّوح المنسيّة في غمرة فقه الأحكام، فثمّة قيم إنسانيّة سامية من قبيل: الرّحمة، العفو، المغفرة، كظم الغيظ، ...إلخ، إنّها قيم تعرّضت للتّهميش لقاء الهوس بالأحكام، وبالعودة إلى الآية{ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)** [(التّغابن: (14))]، بوسعنا إذا قصدنا استنباط الأحكام التّشريعيّة كما يفعل العقل الفقهيّ؛ أن نركّز على أحكام العداوة والحذر داخل الأسرة الواحدة، ثمّ نجعل لتلك الأحكام أبوابًا؛ إما تروم التّخفيف أو التّشديد، تبعًا للمزاج الّذي نبتغي، لكن إذا قصدنا استنباط القيم الوجدانيّة - كما يجب أن يفعل العقل الأخلاقيّ - فسيتّجه انتباهنا إلى قيم العفو والصّفح والغفران المدرجة بصريح اللّفظ ضمن الآية: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا}، والحال أنّ الموروث الفقهيّ ركّز على استنباط الأحكام التّشريعيّة بدل استنباط القيم الوجدانيّة، وتلك خطيئته الأصليّة، مثلًا؛ الآية{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**{؛ فإنّ الجهد الّذي قام به موروثنا الفقهيّ لم يهدف إلى استنباط القيمة الوجدانيّة الواضحة بالبداهة، والحسّ السّليم، الرّحمة؛ إنّما انشغل باستنباط الحكم التّشريعيّ "الإمبراطوريّ"، الّذي هو ادّعاء عالميّة "الشّريعة" الإسلاميّة انطلاقًا من صلاحيّتها للعالمين، ثمّ إنّ مشروعيّة الفتوحات والغزو في الأفق الكونيّ، تمامًا، كما يفعل المتطرّفون اليوم، مرّة أخرى؛ فنحن أمام عقل فقهيّ مهجوس بالتّوسعات الإمبراطوريّة الّتي طبعت العصر الوسيط.

ثمّة أمثلة كثيرة عن تهافت استراتيجيّة التّعويل على استنباط الأحكام التّشريعيّة بدل استنباط القيم الوجدانيّة، أذكر بعضًا منها باقتضاب:

ثمّة آية يبدو أنّها - في بعدها القيميّ - أحرجت العقل الفقهيّ، تحيل إلى المحاورة الشّهيرة بين ابني آدم؛ يقول فيها هابيل لأخيه قابيل: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: (28)]، فقد بذل العقل الفقهيّ قصارى جهده لأجل الإجهاز على القيمة الوجدانيّة الأساسيّة لتلك الآية، قيمة عدم الرّدّ على العنف بعنف مضادّ، وذلك بالرّغم من المتن الحديثيّ الّذي يتضمّن حديثًا مشهورًا، يقول: {كونوا

كخير ابني آدم}. والمقصود، كونوا كهابيل الذي لم يشأ أن يردّ على عنف أخيه بعنف مضاد. وبدل ذلك فقد استلهم جل المفسرين والفقهاء أموراً تلغي القيمة الوجدانية للموقف الهابيلي الذي يبدو كما لو أنه يحرج العقل الفقهي المشحون بغرائز الغلبة والقتال. لذلك شرعوا في البحث عن مبررات لأجل تعطيل القيمة الوجدانية للموقف الهابيلي، من قبيل الزّعم بأن قابيل كان مؤمناً موحداً بدوره، وهو ما يبرر التحرُّج الاستثنائي لهابيل، أو يكون المقصود هو عدم المبادأة في القتال، بمعنى أن هابيل أراد أن يقول: (إن كنت ستبدأ بقتلي، ما أنا ببادئ بقتلك)، فيتعلّق الأمر بتحرّج من المبادأة في القتال، وليس تحرّجًا من القتال عينه، ثمّ اتّفق جلّ الفقهاء - في النّهاية - على أنّ حكم هابيل هذا يظلّ منسوخًا ضمن ما يسمّى (نسخ الشّرائع)؛ فانتصر الحكم القابيليّ على القيمة الوجدانيّة، هكذا، ضاعت القيمة الوجدانيّة السّامية لـ"خير ابنَي آدم"، في غمرة الفقه المهجوس بأحكام التوسعات الإمبراطوريّة، ثمّ جاءت مفاهيم العقل الفقهيّ - في النّهاية - كي تُعبّر عن حاجيّات عصر التّوسّعات الإمبراطوريّة.

سلطة المفاهيم

ليست المفاهيم مجرّد وسائل لتبليغ الفكرة أو التّعبير عنها؛ بل لعلّها قوالب جاهزة لصياغة الفكرة، ونحن لا نتكلّم بواسطة المفاهيم وحسب؛ بل نفكر بها أيضًا، لذلك، عندما يستعمل الخطاب الدّينيّ في المساجد أو المدارس - مثلًا - مفاهيم العورة والولاية والجماعة والطّاعة، فإنّ الأمر لا يتعلّق بمجرّد لغة تقليديّة يمكن فهمها بإحالتها إلى مفاهيم الجسد والسّلطة والمجتمع والانضباط؛ إنما يحيل الأمر إلى حمولة فكريّة تؤثّث تصوّرات العقل، وتحدّد نمط السّلوك وأسلوب الحياة، لذلك؛ ليس من المبالغة في شيء أن نعدّ سلطة المعرفة هي سلطة المفاهيم.

إذا كان الأمر كذلك؛ فالملاحظ أنّ المفاهيم الأساسيّة للفكر الدّينيّ في الإسلام، تبقى مفاهيم احترابيّة، من قبيل الجهاد، والقتال، والتّمكين، ودار الحرب ودار الإسلام، والولاء والبراء، والجماعة، والبيعة، والغنيمة، والسّبي، والجزية، ...إلخ، لا سيّما أنّ العصر الّذي تشكّل فيه العقل الفقهيّ كان موسومًا بالتّوسّعات الإمبراطوريّة، كما سبقت الإشارة، وكانت تلك المفاهيم متناغمة مع زمنها إلى حدّ بعيد، زمن العصر الوسيط.

ولأنّ المفاهيم ليست مجرّد أدوات للتّعبير؛ بل هي قوالب لصناعة الأفكار وتوجيه التّفكير، وتحديد نمط السّلوك وأسلوب الحياة؛ فمن الطّبيعيّ أن يحدث انفصام داخل عقل الإنسان المؤمن بين المتخيّل المفاهيميّ الفقهيّ الّذي يحيل إلى عصر الإمبراطوريّات، والعالم الحديث الذي يعبّر عن عصر الدّولة الوطنيّة الحديثة، الّتي يُفتَرض أنّها دولة المؤسّسات والحقّ والقانون.

عود إلى بدء

ضمن الآية الّتي اعتمدناها كمنطلق لهذه المحاضرة، مفهوم أشارت إليه أمّي وكان وقعه على قلبي أشدّ وطأة وقسوة؛ بل لعلّه من أخطر المفاهيم الحاسمة في تحديد مآلات العقل الدّينيّ في الإسلام، إذن، لنعد إلى الآية، ونتأمّل المفهوم:

}يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)} [التّغابن: (14 - 15[(

نرى - كما سبق القول - أحد أخطر المفاهيم المؤسّسة للعقل الدّينيّ في الإسلام، وهو مفهوم الفتنة، وقد ورد مفهوم الفتنة في النّصّ القرآنيّ نحو ستين مرّة بدلالات مختلفة، قد تعني ضمن ما تعنيه؛ الابتلاء، أو المحنة، أو الامتحان، أو الخلاف، ...إلخ، لكنّه سيتّخذ مع الموروث الدّينيّ أبعادًا أنطولوجيّة شاملة وبالغة الخطورة: فتنة القبر، فتنة الدّجال، فتنة النّساء، الفتنة النّائمة، الفتنة المتواصلة كقطع اللّيل المظلم في آخر الدّهر، ...إلخ، وعلى هذا النّحو يتصوّر المسلم نفسه وسط حقل من ألغام الفتنة الّتي يصعب النّجاة منها في آخر الحساب، لذلك؛ سرعان ما سينتقل الأمر من الفكر إلى الحياة، ليصير مفهوم الفتنة نوعًا من العصاب الوسواسيّ، هو وسواس الفتنة بالذّات، لا سيّما بالنّظر إلى الأدوار الخطرة الّتي بدأت تضطلع بها شخصيّة الشّيطان داخل الموروث الدّينيّ، الشّيطان الّذي لا يحضر في سيرة النّبيّ لابن هشام - أقدم "كتاب سيرة" - إلّا بنحو باهت وهامشيّ، سرعان ما سيُضخّمه الموروث الدّينيّ، ويمنحه صلاحيّات ووظائف كبرى وخارقة إلى درجة أنّه صار يحاصر المسلم في كلّ تفاصيل يومه؛ بل قد يشاركه المأكل إن نسي أن يسمّي الله، وقد يشاركه حتّى في نسله - ويا للهول! - ثمّ إنّه قد يلحق به إلى داخل حرمة المسجد، ويتسلّل بين صفوف المصلّين - ويا للعجب! - بهذا النّحو يصبح مفهوم الفتنة مدعاة لنوع من أنواع العصاب الوسواسيّ الجماعيّ الّذي ربّما لم ينج منه سوى القليلين.

وبهذا المعنى؛ يصبح مفهوم الفتنة نفسه منتجًا للفتنة.

ألم نقل: إنّ المفاهيم حاسمة؟

مسألة أساسيّة، ولأنّ التّصوّرات اللّاهوتية سرعان ما تنعكس على التّصوّرات السّياسيّة؛ فستصبح الفتنة - في بعدها اللّاهوتيّ - مدعاة للفتنة السّياسيّة، وهكذا كان.

لكن، ما الّذي كان؟

الّذي كان؛ هو أنّه سرعان ما اتّخذ الشّيطان أشكالًا سياسيّة تُستَثمر لتأجيج غرائز الحيطة والحذر والتّوجّس في المستوى السّياسيّ، من أمثلة ذلك؛ شخصيّة أبو لؤلؤة عند الصّحابة،

شخصيّة عبد الله بن سبأ عند المؤرّخين القدامى، شخصيّة لورانس العرب حديثًا، دولة أمريكا باعتبارها الشّيطان الأكبر في الخطاب الخمينيّ الإيرانيّ، وصولًا إلى صورة المرأة والأقلّيات والفلاسفة والقوى التّقدّميّة في مجمل الخطاب الدّينيّ.

طبيعيّ أن يكون تاريخ الإسلام تاريخ فتن لا أوّل لها ولا آخر، فتن لا تدرؤها إلّا فترات الاستبداد، فتن سياسيّة متسلسلة منذ موقعة الجمل إلى غاية اليوم.

غير أن الحدث المرجعيّ للفتنة في بعدها السّياسيّ - وهذا ما لا يخفى - يبقى هو الفتنة الكبرى.

الأساس النّظريّ للفتنة الكبرى

يتوجب علينا التّذكير بأنّ كلّ مفهوم - هو في حدّ ذاته - نسيج مركّب من مفاهيم جزئيّة وتصوّرات فرعيّة، فلا وجود لمفهوم بسيط غير مركّب، لذلك؛ خليقٌ بنا أن نقوم بعمليّة تفكيك لمفهوم الفتنة السّياسيّة.

ثمّة - بلا شكّ - مقترحات عدّة للتّفكيك، ولاعتبارات البداهة والوضوح؛ سأعتمد على محاولة تفكيك تصوّرين فرعيّين متلازمين وملازمين لمفهوم الفتنة: السّلطة والحقيقة.

-1يقوم تصوّر السّلطة على ثلاث مسلّمات:

-هناك - دائمًا - شخص واحد محدّد هو الأحقّ بالسّلطة، على الأقل، ما دام هذا الشّخص على قيد الحياة، ولم ينكر حقّه بنفسه طوعًا أو كرهًا.

-لا تجوز منازعته في الأمر، وأمّا إذا نازعه أحد؛ فيُقتل بلا تردّد، وذلك درءًا للفتنة الّتي هي أشدّ من القتل.

-مدّة حكمه غير محدّدة في الزّمان، فلا يحدّها إلّا الموت، اللّهم إلّا إذا ظهر منه "كفر بواح."

-2يقوم تصوّر الحقيقة على ثلاث مسلّمات فرعيّة:

-ثمّة - دائمًا - حقيقة واحدة محدّدة؛ إذ ليس مقبولًا حدوث أيّ تسوية بينها وبين الحقائق المخالفة لها.

-هي موجودة بنحو موضوعيّ ومطلق؛ فلا تخضع لزاوية النّظر الشّخصيّة.

-الدّفاع عنها واجب أخلاقيّ وشرعيّ؛ بل تستدعي التّجنيد والتّجييش.

على أنّ المعالجة الفقهيّة لموضوع الفتنة ستكون إعادة دائمة لإنتاج الفتنة؛ فقد اعتمد الموروث الفقهيّ في خلاصته على محاولة ضبط مسألة السّلطة على أساس أحد الخيارين: إمّا السّلالة والنّسب، أو الغلبة والتّمكين، غير أن أهمّهما خياران غير قابلين للضّبط، هما:

أوّلًا؛ فإنّ السّلالة تخضع لتفريعات لا يمكن ضبطها أو تقنينه، وهذا ما يساهم في إعادة تأجيج الفتن مرّة بعد مرّة، لأسباب تتعلّق بالتفريعات السّلاليّة، ثمّ إنّ منطق النّسب والسّلالة يحيل إلى منطق القبيلة وليس إلى منطق الدّولة.

ثانيًا؛ فإنّ الغلبة تخضع لموازين قوى متغيّرة لدرجة السّيولة، ما يمنع من ضبط السّلطة وفق قواعد واضحة ومقنعة، فضلًا عن ذلك؛ فإنّ منطق الغلبة والتّمكين يحيل مباشرة إلى غرائز القطعان البدائيّة، يوم كان الذّكَر الغالب هو المستبدّ الأوحد بقيادة القطيع، إلى حين موعد العراك الدّمويّ القادم حول "القيادة"، مع ذَكَر منافس قد يكون من أقرب المقرّبين، وقد يأتي زاحفًا من الآفاق، وكان قدر المغلوب إمّا الموت الرّحيم أو المنفى الذّليل، وهكذا كان حال القادة والملوك والسّلاطين في العالم القديم، وكانت جواري القصر عندهم تعبيرًا رمزيًّا على هيمنة الذّكَر القائد على إناث القطيع.

بهذا المنطق الذي يحيل إلى الغرائز البدائيّة، لا يمكن ضبط مسألة السّلطة بمعزل عن الفتنة العنف والاقتتال، وفي محاولة ضبط سؤال الحقيقة؛ استند الموروث الفقهيّ - في مجمله - إلى أساس مرجعيّتين غير قابلتين للضّبط:

من جهة أولى؛ **النّصّ الدّينيّ**، وهو ما لم يحصل أيّ اتّفاق على تحديده، فما هو النّصّ الدّينيّ إذن؟ هل يتعلّق الأمر بالقرآن حصرًا، أم بالقرآن زائد المتن الحديثيّ، ثمّ زائد المتن الصّحابيّ، ثمّ زائد المتن التّابعيّ، ثمّ ماذا؟ وهل نقصد بالقرآن (كلّ ما هو مدوّن في المصحف العثمانيّ تحديدًا) أم نقصد حتّى الآيات التي تندرج ضمن ما نُسخ لفظه وبقي حكمه كما يقال؟ ثمّ إنّ النّصّ القرآنيّ حمّال أوجه - كما جاء في قول مشهور ومنسوب إلى علي بن أبي طالب - وبالأحرى؛ يبقى السّؤال، ما هو النّصّ الدّينيّ؟

من جهة ثانية؛ **مرجعيّة السّلف**، غير أنّ السّلف يصعب حصره وتحديده، وخلافاته لا تُعدّ ولا تُحصى في كلّ الموضوعات، ما يعني؛ أنّ السّلف لا يستطيع أن يمنح للمسلمين أيّ ضبط لمشروعيّة الحقيقة، بالأحرى، يبقى السّؤال مفتوحًا؛ من هم السّلف تعيينًا وتعدادًا؟

حيّ على الإصلاح

لا شيء يدمّر البيت أكثر من الألغام المبثوثة داخله؛ لأنّها تحطّمه بالكامل حين تنسفه من الدّاخل، لذلك؛ كان الغلوّ في الدّين أشدّ ضررًا على الدّين من الابتعاد عن الدّين، وبالعودة إلى موضوع الفتنة، إذا كان المتخيّل الفقهيّ يتحدّث عن "فتنة الدجال" في آخر الزّمان؛ فإنّ

الوجه الآخر لرمزيّة الدّجال؛ أنّه يرمز إلى أنّ "عدوّ الدين" قد يأتي لابسًا لبوس الدّين نفسه؛ بل قد يأتي بالمظهر الأكثر ورعًا وتديّنًا، ثمّ كانت فتنته الأشدّ خطرًا وضررًا، عمومًا؛ في رمزيّة الحكاية تحذير من أن أخطر أعداء الدّين يأتون من داخل الدّين بالذّات؛ بل قد يدّعون حمايته والدّفاع عنه، وبهذا النّحو يختلط الحابل بالنّابل فتعمّ الفتنة الدّينيّة، ويضيع الدّين في النّهاية، لذلك؛ دعنا نقول بلغة صريحة واضحة: الإصلاح الدّينيّ ضرورة دينيّة كذلك.

أ: الإصلاح النّظريّ

فيه مسألتان:

(1إصلاح الخطاب الدّينيّ وفق ثلاثة مرامي:

أوّلًا: تخليصه من المفاهيم الاحترابيّة المنحدرة من عصر التّوسّعات الإمبراطوريّة: الجماعة، الطّاعة، البيعة، الولاء والبراء، التّدافع، التّمكين، دار الحرب ودار الإسلام، أهل الذمّة، الجهاد، الخراج، الغنيمة، السّبي، ...إلخ.

ثانيًا: تخليصه من الانفعالات السّلبيّة المرتبطة بما أسميناه بالمرحلة القرآنيّة الثّانية، مرحلة ما بين الهجرة والفتح، وهي المرحلة الّتي كانت تتطلّب إثارة انفعالات الغضب، والغيرة، والتّوجّس، والحذر، والحيطة، ...إلخ، قبل أن يرسّخها العقل الفقهيّ لاعتبارات تتعلّق بالبناء الإمبراطوريّ للدّولة.

ثالثًا: تخليصه من الاستعمال السّحريّ في مواجهة العلم، والاستعمال الإيديولوجيّ في الصّراع على السّلطة.

(2إصلاح الرّؤية الدّينيّة وفق ثلاثة أهداف:

أوّلًا: يجب العمل على نقل مركز الثّقل الدّينيّ من الشّريعة إلى العقيدة، ذلك أنّ العقيدة هي جوهر الدّين وأساسه، طالما أنّها تختصّ بتوحيد الرّبوبيّة، أمّا الشّريعة؛ فإنّها مجرّد اجتهاد للفقهاء كما قلنا، وكما نردّد دائمًا.

ثانيًا: يجب العمل على إعادة نقل مركز الثّقل النّصّيّ من الصّحاح إلى المصحف؛ ذلك أنّ الخطاب القرآنيّ هو الذي يختزل جوهر العقيدة (الشّعائر التّعبّديّة والقيم الوجدانيّة)، والحقّ يقال، حين نقارن الخطاب القرآنيّ بسائر الموروث الدّينيّ نجده الأقرب إلى العقل، وحقوق المرأة، وحقوق الأقلّيّات، واحترام مبدأ الحياة، فمثلًا؛ حين نقارن بين صورة النّبيّ في الخطاب القرآنيّ، وصورته في الموروث الدّينيّ؛ نجد النّبيّ في الخطاب القرآنيّ بلا معجزات، بلا كرامات، بلا عصمة عن الخطأ؛ إذ كثيرًا ما أخطأ فعاتبه الوحي، وكلّ هذا في تناقض صارخ مع صورته في المتن الحديثيّ؛ حيث يظهر ركام عجيب من المعجزات

والكرامات والخرافات، وأيضًا، نجد الفارق كبيرًا جدًّا حين نقارن بين صورة المرأة في الخطاب القرآنيّ (الحاكمة الحكيمة بلقيس مثلًا)، وصورة المرأة في خطاب الموروث الدّينيّ (حيث لا تصلح للحكم ولا للحكمة ولا لأي شيء آخر عدا الإنجاب)؛ بل سيكون الأمر كذلك حتّى حين ننظر داخل الخطاب القرآنيّ (في قصّة أهل الكهف مثلًا)، إلى قيمة حيوان مشهود له بالوفاء والإخلاص، لكنّ الموروث الفقهيّ نبذه نبذًا مريبًا (هو الكلب.(

ثالثًا: يجب العمل على نقل مركز الثّقل الفقهيّ؛ من استنباط الأحكام التّشريعيّة إلى استنباط القيم الوجدانيّة، وكما قلنا سابقًا: "إنّ الأحكام التّشريعيّة ليست مطلقة؛ بل مقيّدة بالشّرط التّنزيليّ وسياق المسألة، وفي المقابل؛ ثمّة قيم وجدانيّة قويّة تهمَّش عنوة (العفو، الرّحمة، الغفران، ...إلخ.(

ب: الإصلاح العمليّ

سيترجم الإصلاح العمليّ ذلك الجهد إلى برامج يصوغها الخبراء وأهل الاختصاص في مجالات التّربية والتّعليم، وخطب الجمعة، والبرامج الدّينيّة التّلفزيّة، ...إلخ، عمومًا؛ بوسعي تقديم بعض المقترحات حول ما يمكنني أن أصطلح عليه بالإصلاح المسجديّ.

أفكار حول الإصلاح المسجديّ

المسجد - شأنه شأن سائر المؤسّسات - قد ينحرف عن وظائفه أحيانًا، وقد يتخلّف عن الرّكب العامّ للتّطوّر الحضاريّ عندما ينحرف، فلا شكّ في أنّه يحتاج إلى الإصلاح، وحين يتخلّف؛ لا شكّ في أنّه يحتاج إلى التّحديث، وأمّا عندما ينحرف ويتخلّف؛ فإنّه يصبح أداة لتعطيل العقل والخروج عن ثقافة القانون، وأمّا عندما يحتاج المسجد إلى الإصلاح ولا يُصلَح، حين يحتاج إلى التّحديث ولا يُحدَّث، حين يحتاج إلى العقلنة والتّقنين ولا يُعقلَن أو يُقنَّن؛ فإنّه سرعان ما يتحوّل إلى عائق كبير في وجه الإصلاح والحداثة والعقل والقانون، وأقترح - في هذا الصّدد - خمسة مجالات للإصلاح المسجديّ:

أوّلًا: بالنّسبة إلى أئمة المساجد:

-تحسين ظروفهم الاجتماعيّة والمهنيّة، والنّهوض بأنظمة الخدمات الصّحّيّة والاجتماعيّة والتّرفيهيّة للقيّمين الدّينيّين.

-منح الخطباء فرصة تكوين أساس يقوم على التّعريف بتاريخ الإسلام بكلّ ما يحمله من إنجازات علميّة، وفتن سياسيّة، وروائع أدبيّة وصوفيّة، ونكبات حقوقيّة، ومآسي إنسانيّة، فضلًا عن الاطّلاع على اختلاف المفسّرين والمتكلّمين في مسائل العقيدة والشّريعة، بعيدًا

عن أساطير "وحدة المذهب" والعقيدة الصّحيحة" ...إلخ، وذلك حتّى يكتسب الخطيب القدرة على تنسيب الآراء والأحكام، وامتلاك القدرة على التّنسيب هي أعزّ ما يُطلَب الآن.

-ضمان تكاوين دائمة ومستمرّة يشرف عليها خبراء في القانون، وذلك لتمكين الخطباء من ضبط قوانين البلد الّذي يشتغلون فيه، ولنا في قصص القرآن متّسعًا رمزيًّا لاستنباط ما يكفي من القيم الّتي تمجّد الأمن والتعاون.

-ضمان تكاوين عصريّة يشرف عليها خبراء حقوقيّون، لغاية تمثّل المبادئ الكونيّة لحقوق الإنسان، وحماية البيئة، وحقوق الأقلّيّات، والطّفل، ...إلخ.

-تجريم كلّ أشكال اللّجوء إلى الشّعوذة تحت أي مسمّى، كيفما كان (الطّبّ البديل، الطّبّ الرّوحانيّ، الطّبّ النّبويّ، الرّقية الشّرعيّة، ...إلخ) الّتي تمثّل - في آخر المطاف - تهديدًا للصّحّة العامّة في بعدها النّفسيّ والجسديّ.

-تجريم كل أشكال التحريض على الكراهية على أساس الدين أو المذهب أو الجنس أو العرق، والتي تمثل تهديدا للأمن العام، ووحدة النّسيج الاجتماعيّ.

-تحديد قدر معيّن من أموال الصّدقة أو الزّكاة أو التّبرّعات الّتي يحقّ لإمام المسجد الحصول عليها، أو إعادة توجيهها وفق ضوابط القانون، وحاجيّات المجتمع المحلّيّ، وذلك تحت طائلة قانون "من أين لك هذا؟"، وهو القانون الّذي لا يجب أن يتحرّج من أصحاب العمائم.

ثانيًا: بالنّسبة إلى بناء المساجد:

-نظرًا إلى أنّ تكاثر المساجد، أو ما يسمّى بالمساجد، يأتي على حساب جودة "بيوت الله"، ومعاني الصّلاة، وكرامة المصلّين، ويساهم في مظاهر الانفلات الوظيفيّ والأمنيّ، فإنّنا نقترح ضبط إيقاع بناء المساجد على أساس نوع من التّناسبيّة السّكانيّة، مثلًا؛ تحديد مسجد واحد بكامل مواصفاته الفنّيّة والجماليّة والصّحّيّة المطلوبة لكلّ نسبة معيّنة من السّكان المسلمين الممارسين للدّيانة.

ثالثًا: بالنّسبة إلى صلاة الجماعة في المساجد:

-حول مسألة الازدحام: لأجل تفادي الازدحام أثناء بعض الصّلاة، الّذي يقود - أحيانًا - إلى احتلال الشّوارع المجاورة وغلق الطّرقات من طرف المصلّين، وهي صورة قد لا تبدو مهذّبة؛ يمكن اعتماد الاقتراح الآتي: بالنّسبة إلى صلاة الجمعة والأعياد، وكذلك بالنّسبة إلى

كل صلاة من الصلوات الّتي تشهد ازدحامًا اعتياديًّا، يمكن إجراؤها مرّتين أو ثلاث مرّات بالتّناوب، وفي فترات تتفاوت بنحو ساعة أو نصف ساعة.

-حول مسألة الاختلاط: ليس يخفَى أن صور النّساء المصلّيات في المساجد خلف ستار مغلق، أو في أقبية أو سراديب خاصّة، أصبحت تحطّ من كرامة المرأة المسلمة أمام أنظار العالم، علمًا بأن الجميع يعرف بأن السّتار الفاصل بين النّساء والرّجال لم يكن في زمن الرّسولﷺ، ولا كان في زمن الخلفاء الأوائل؛ إنّما هو من المحدَثات الّتي يسهل إبطالها، لا سيّما أنّ الحجّ نفسه - وهو أعظم مقام - لا يُفصَل فيه بين الجنسين (رغم علمنا بوجود بعض متأخّري السّلفيّة ممّن يحاولون - اليوم - دفع الأمور إلى هذا الاتّجاه)، والحمد لله أنّ هؤلاء لم يظهروا في زمن السّلف، وإلّا لفرضوا الفصل الكامل بين الجنسين، وارتداء النّساء للنّقاب أثناء أداء الشّعائر المقدّسة!

رابعًا: بالنّسبة إلى خطب المساجد:

-ليس من المبالغة القول: إنّ صورة الخطيب واقفًا بعصاه الّتي يدقّ بها بين الفينة والأخرى، ويصرخ في المصلّين - رغم وجود مكبّر الصّوت - لم تعد صورة مشرّفة اليوم، وفي المقابل؛ فإن جلوس الإمام على المنبر سيساعده في الحفاظ على الهدوء وضبط الانفعالات، وسيحفظ له قدرًا من الحكمة والوقار.

-الملاحظ - أيضًا - أن لبعض الخطباء ميلًا غريزيًّا إلى التّطويل والإطناب، وهذا ما لا يتناغم مع الإيقاع السريع للحياة المعاصرة، فضلًا عن أنّ التّهييج الغوغائيّ يأتي - عادة - من فرط الإطالة في الكلام، لذلك؛ يمكن اعتماد المقترح الآتي: تحديد سقف زمنيّ لكلّ خطبة لا يتعدّى - على أبعد تقدير - خمس عشرة دقيقة.

خامسًا: بالنّسبة إلى الآذان في المساجد:

-لا شكّ في أن تفاوت أصوات آذان المساجد المتقاربة الّتي قد تقترن بضعف جودة المواصفات الصّوتيّة والفنّية، يخلق نوعًا من الضّجيج والبلبلة في كثير الأحيان، ويترك في النّفوس - لا سيّما الأطفال - أثرا عنيفًا، وهذا ممّا ليس يخفى عن النّاس، لكنّ معظمهم لا يعترفون، أو يتحرّجون، والأصل أن الله تعالى قال: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحجّ: (78)]، لذلك؛ نقترح - ضمن الرؤية الإصلاحيّة - توظيف تقنيات التّواصل الحديثة وربط المآذن في المستوى المحلّيّ والجهويّ بشبكة صوتيّة ذات مركز صوتيّ واحد، وبمواصفات فنيّة عالية الجودة.

الخلاصة إذن؛ هذه المقترحات لا تتطلّب الكثير من المال، لكنّها تتطلّب غير قليل من الإرادة، وهذه المقترحات ينطبق عليها قول بائع المصاحف في الطّرقات حين يقول: ثمنها صغير وأجرها كبير عند الله.

ثلاث توصيات في الأخير

أوّلًا: ضرورة انفتاح الحقل الدّينيّ على التّصوّف النّظريّ، لا سيّما في مجال التّربية والتّعليم، لماذا؟ لأنّ علاقة التّصوّف النّظريّ بالذّات الإلهيّة تقوم على أساس الحبّ بدل الخوف، وأنا - هنا - لا أتكلم عن الطّرقيّة، وإذ يمنحنا الخوف أخلاق العبيد، أخلاق النّفاق والتّقيّة والتّكتّم والمكيدة؛ فإنّ الحبّ يعلّمنا الصّدق والشّفافيّة والنّزاهة والوضوح.

ثانيًا: معاودة انفتاح الحقل الدّينيّ على الفلسفة الإسلاميّة، لماذا؟ لأنّ علاقة الفلسفة الإسلاميّة بالدّين قامت على أساس البرهان العقليّ، بدل التّسليم السّمعيّ بالرّوايات والأخبار، وهو التّسليم الّذي قاد - في النّهاية - إلى تعطيل الفكر واستقالة العقل.

ثالثًا: انفتاح الحقل الدّينيّ على كلّ الاجتهادات الدّينيّة الّتي أقصاها من ذاته، واستبعدها من دائرته عنوةً، أو تركها - أحيانًا - للفلسفة أو لحقول معرفيّة أخرى، ثمّ ما انفكّ يهمّشها بدورها، بدعوى لزوم الجماعة ووحدة العقيدة: الجهميّة، القدريّة، المعتزلة، الزّمخشري، ابن رشد، ابن عربي، ...إلخ، بمعنى؛ أنّ العقل المسلم عليه أن يتصالح مع كلّ المكوّنات الّتي بترها من كيانه، وطردها من دائرته، وقد كانت - في يوم من الأيام - جزءًا من مجاله الحيويّ، عليه - إذن - أن يستردّ خصوبته وتنوّعه وانفتاحه.

على المسلم أن يتصالح مع مكوّناته كافّة.

-عليه أن يتصالح مع المرأة، بعد أن ظلّ ينظر إليها نظرة توجس، معتقدًا أنّها تمثّل أغلب أهل الجحيم، وأنّها حطب النّار، وعورة في الدّنيا، وناقصة عقل ودين.

-عليه أن يتصالح مع العقل، بعد أن ظلّ يظنّه مدخلًا إلى الكفر والزّندقة والإلحاد، على قاعدة: (من تمنطق تزندق.(

-عليه أن يتصالح مع الجسد، ومع الطّاقة الحيويّة الّتي يمنحها الجسد للإنسان، فقد دأب على عدّه مجرّد نجاسة وجنابة وحفنة من طين، وأنّ العين تزني، واليد تزني، وكلّ شيء في الإنسان يزني.

-عليه أن يتصالح مع الجمال، بعد أن اعتاد على اعتبار الفنون الجميلة وقيم الجمال مجرّد شرك بالله، وفساد في الأرض، وضياع للعفّة والدّين.

-عليه أن يتصالح مع الحياة، فقد ضيّع الكثير من فرص التّقدم والازدهار، وهو يرى الحياة مجرّد لعنة وابتلاء، وأنّها لا تساوي عند الله حتّى "جناح بعوضة!"

-عليه أن يتصالح مع ذاته - أوّلًا - وقبل كلّ شيء، فقد خاصمها كثيرًا وأنكرها طويلًا، واعتاد على التّعوّذ من شرور النّفس في كلّ أعماله وأفعاله وأحلامه، فلم يبق له من أحلام في الحساب الأخير غير الأضغاث والكوابيس.

-عليه - أخيرًا - أن يتصالح مع طبيعته البشريّة.

-ماذا بعد؟

آه، لعلّي نسيت، ربّما عليّ أن أتصالح - بدوري - مع أمّي.

شكرًا على نباهتكم، شكرًا على انتباهكم.

عن "النفاق الديني"

النفاق هو أن تبرّر َأنَّ كوارثَنا ومصائبَنا هي لبُعدِنا عن الله ، رغم أننا أكثرُ شعوبِ الأرض إيماناً بوجودِ اللهِ وعبادةً له, وأنْ تُرْجِعَ فشلَنا إلى أنّ نساءنا كاسياتٌ عاريات،رغم أنهُنَّ أكثرُ نساءِ البشرِ تغطيةً لأجسادِهِن, وأنّ سببَ بؤسِنا هو غضبُ اللهِ و سخطُهُ علينا..
تطبيقُنا للمَنطِقِ نفسِهِ سيقودُنا إلى أنَّ أزدهارَ أمريكا، و قوةَ أوروبا هو لرضا الله ونعمَتِهِ عليهما..!!

النفاقُ، هو أن تعلمَ عِلْمَ اليقينِ ،وبالأرقام، أنَّ المجتمعاتِ الأكثرَ تَدَيُّناً في العالم هي أيضاً الأكثرُ فساداً في الإدارة, والأكثرُ اِرْتِشاءً في القضاء, والأكثرُ كذباً فى

السياسة, والأكثرُ هدراً للحقوق, والأكثرُ تحرُّشاً بالنساء, والأكثرُ اعتداءً على الأطفال, ثم تقول للناس : "إنَّ سببَ فسادِ الأخلاقِ هو نقصُ الدين..!! "

النفاقُ هو أن ترى أفغانستانَ وباكستانَ ومصرَ تزيدُ نِسَبُ التحرُّشِ فيها عن 90%، ثم تقول: إنَّ سببَ التحرُّشِ هو ملابسُ المرأة..!!

ليس هناك مِنْ نِفاقٍ أسوأُ مِنْ أنْ تُطالِبَ بتطبيقِ الشريعةِ فى بلدكَ،ثُمَّ تهاجرُ للعيشِ فى بلدٍ عَلْمانِيّ..

ليس هناك مِنْ نِفاقٍ أوْقحُ مِنْ أنْ تُطالِبَ بزيادةِ موادِّ الإسلامِ في المِنهاجِ الدِّراسيّ، ثم تُسَجِّلُ أبناءَك فى إحدى مدارسِ البعثةِ الفرنسيةِ أو الأمريكيةِ أو البريطانية..

ليس هناك من نفاقٍ أحقرَ من أنْ تُحرِقَ العلمَ الأمريكيَّ في كُلِّ مناسبةٍ، أو دونها، ثُمَّ تقفُ فى طابورِ سفاراتِها أوقنصلياتِها، لأجلِ الحصولِ على تأشيرةِ الدخول..

◦النفاقُ هو ألّا تكترثَ لِفسادِ الرشوةِ والتهرُّبِ الضّريبي وتبييضِ الأموال, وفسادِ جهازِ القضاء , وفسادِ الغِشِّ فى السِّلَعِ والمُنتَجات , وفسادِ مافياتِ المخدِّرات وتهريبِ البضائع , ثم ترى الفسادَ كُلَّ الفسادِ فى مجرَّدِ تنورةٍ أو سِرْوالٍ قصير، أو قُبْلَةٍ في لوحةٍ مشهورة..

النفاقُ هو أن ترى أنجيلا ميركل تُسْعِدُ شعبَها , وتيريزا ماي تتولى رئاسةَ الحكومةِ البريطانية, وترى الكثيرَ من السيداتِ اللواتي تَحْكُمْنَ العالمَ في أوروبا وأمريكا الشماليةِ والجنوبيةِ وأُستراليا وشرقِ آسيا وأفريقيا, وصندوقِ النقدِالدَّوْلِيّ،ومحكمةِ العدلِ الدولية، ومعظمَ منظماتِ الأممِ المتحدةِ تَتَوَلّاها سيدات, وتشاهدَ وزيراتِ الدفاعِ في النّرويج والسوَيُدِ وهولندا وألمانيا وإسبانيا واليابان, ثم تقول: إنَّ المرأةَ لا تصلُحُ للعملِ العام.!!

النفاقُ هو أنْ تَعْتَبِرَ كُلَّ نِساءِ الأرضِ ناقصاتِ عقلٍ ودين, وعوراتٍ, وحبائلَ الشيطان, وحطبَ جهنّم, إلّا أُمَّك، فإنَّ الجنةَ تحتَ أقدامِها.!!

تَخَلُّفُنا ليس بسببِ بُعْدِنا عنِ الدِّين، فالأممُ المُلْحِدَةُ المتقدمةُ ليس لَدَيْها دِين.

ولكنَّ تَخَلَّفَنا لِأنَّنا لا نأخذُ بأسبابِ التّقَدُّمِ والتَّطوُّر, وفشلَنا لفسادِنا وفسادِ القائمينَ علينا؛

◦ورَجْعِيَّتَنا لِأنَّنا بعيدونَ عنِ العِلْمِ و العلومِ والتعليم, وبؤسَ حالِنا لِأننا أُمّةٌ تَظُنُّ أنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِ سواها..!!

إذا نزلَ مؤمنٌ وكافرٌ إلى البحرِ، فلا ينجو إلَّا مَنْ تَعَلَّمَ السِّباحة، فاللهُ لا يُحابي الجُهَلاء..

◦النفاقُ هُوَ أنْ تَجْبُنَ عنْ قَوْلِ الحّقِّ وتُحابِي الباطل...

جرائم "سعيد ناشيد" في حق قراء جريدة "الصباح"

طارق الحمودي*

سئل الكاتب سعيد ناشيد عن مبادرة "خارجون عن القانون" للمطالبة بالحريات الفردية، والتي تدعو إلى إباحة ممارسة الزنا والشذوذ الجنسي كما تفعل قرود وخنازير الغابة أو بهائم وحمير الزريبة -كما في صحيفة الصباح عدد 6021- فأجاب -في حيدة لئيمة- عن موقف الدين من الحريات الفردية..!!

سئل الرجل عن مبادرة "خروج عن القانون" فأجاب عن موقف الدين!! وهو تهرب واضح من سؤال محرج، وهذا يوحي بأنه موافق على مبدأ التمرد العلني على القانون، فإنه لم يُبد أي تحفظ على مصطلح "خروج عن القانون"، وعوض ذلك اختار سعيد -وهو أحد الدعاة إلى "الديانة العلمانية"- أن يتحدث عن موقف القرآن من "الحريات الفردية"، فادعى أنه "مؤسس للحريات الفردية"، ومؤكد على أن "الفرد هو الأصل"، وبدأ بقوله تعالى "لا تزر وازرة وزر أخرى" ثم "لكل نفس ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت"، و"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، والغريب أن هذه الآيات تبين أن هناك "وزرا" و"غيا"، وهو عين ما تدعو إليه مبادرة "الحريات الفردية في ممارسة الزنا والشذوذ الجنسي" ما يدعو إليه سعيد وجماعته!

أبدى رشيد معارضة للمفهوم الديمقراطي "للجماعة" زاعما أنه ضد "الحريات الفردية"، وهو يعلم أو لا يعلم أن مفهوم "الجماعة" مفهوم أساس في الخطاب الديمقراطي الحداثي، وعليه تقوم أدبياته، فالفرد تابع لاختيارات الجماعة أي الأغلبية، محكوم بنمط عيشها العام وقوانينه المنظمة، وهذا يوحي بأن سعيد متمرد على "ديمقراطيته" و"حداثته"، ولذلك كذب حينما زعم أن الحريات الفردية أساس الحداثة، وما يدعيه هذا الرجل مخالف لما قرره علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وغيره من أنه لا يجوز الحديث عن "فرد" في مقابل "جماعة"، لأن المفهومين متداخلان، فالفرد هو لبنة الجماعة، والجماعة هي شرط "الفرد" ومحدده، وهذا التفريق مناورة أو جهل بحقيقة الأمر.

الأمر الإيجابي في حوار سعيد ناشيد، هو أنه كان يحيل إلى القرآن والإسلام، وهذا نوافقه عليه، ولذلك ننصح جماعته بالعودة إلى القرآن للنظر في أسس الحريات الفردية ومعالمها وحدودها، بعيدا عن "الخروج عن القانون"، هذا إن كان سعيد صادقا في إحالته إلى القرآن في مسألة "الحريات".. لكن الحقيقة أن سعيدا كان يكذب على قراء "الصباح" ويمارس إحدى العبادات المفضلة عند أتباع "الديانة العلمانية" ..."النفاق"، فقد صرح في بعض كتبه بتشجيعٍ من بعض المستشرقين بأنه «لا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نقيم القرآن بمقاييس الحداثة السياسية والثورة العلمية وحقوق الإنسان، ولا يجوز لنا أن نتعامل معه كنص في العلم أو السياسة أو الأخلاق، وإذا فعلنا ذلك فإننا سنقترف جرما كبيرا وسنظلم القرآن ظلما عظيما»، وهذا يعني أن الإحالة إلى القرآن في المقال كانت تدليسا ونفاقا.

هي إذن أربع جرائم، إقرار مبدأ "الخروج عن القانون"، والإحالة إلى القرآن في مسائل الحريات، والنفاق الفلسفي، وإقرار الدعوة إلى الزنا والشذوذ الجنسي.

*** باحث متخصص في "الديانة العلمانية"**

سعيد ناشيد: نمط التدين الموروث لم يعد مناسبًا للدولة الوطنية

ري المفكر المغربي سعيد ناشيد، أن نمط التدين الذي ورثناه عن فقه عصر التوسعات الإمبراطورية لم يعد مناسبًا لزمن الدولة الوطنية، بل بات يمثل تهديدًا صريحًا للأمن والسلام، وأشار في حواره لـ"الدستور" إلى ضرورة تخليص الخطاب الديني من المفاهيم القديمة من قبيل "الطاعة، والبيعة، والجماعة، وأهل الذمة، والولاء والبراء، ودار الحرب ودار الإسلام."

وحول إمكانية أن تتحول تنظيرات تجديد الخطاب الديني إلى واقع ملموس، قال إن ذلك ممكنًا عندما تُترجم التنظيرات إلى برامج إصلاحية واقعية فيما يخص خطب الجمعة، ومناهج التعليم الديني، وبرامج الإعلام ذي الصبغة الدينية، لافتًا إلى أن ثمة علماء دين بدأوا ينتفضون ضد "الجهل المقدس" لأجل الإصلاح الديني، وإلي نص الحوار:

ـ يذهب مفكرون إلي أن القهر والتعذيب الذي تعرض له دعاة "الإسلام السياسي" هو سبب تنامي ظاهرة الإرهاب.. كيف تري الأمر؟

***إذا كان الحكام الذين دعموا الإسلام السياسي لم يسلموا من غدره في لحظات الشعور بالتمكين (أنور السادات، بيناظير بوتو، إلخ)، فهذا يعني أن المآل لا يتعلق بسوء المعاملة أو حسنها، وأن الأمر يصعب تفسيره بمنطق الفعل ورد الفعل، ولا يخفى على أحد أن "الجهاديين" يتمتعون بقدر كبير من الحرية والكرامة الإنسانية داخل المجتمعات الغربية، ورغم كل ذلك لا يتورع كثيرون منهم عن التسبب في مشاكل أمنية مجانية.**

ولذا يمكنني القول، إن المعضلة أعمق من المستوى السياسي أو الاقتصادي؛ فهى تكمن تحديدًا في مستويات اللاشعور الجمعي، وأقصد بذلك وجود حالة مرضية بلغتها مجتمعاتنا جراء الشعور بالهزيمة والعجز والفشل، وتغول الانفعالات السلبية داخل الخطب الدينية في غالبية المساجد، ومناهج التعليم الديني، فضلاً عن أدعية الحقد والكراهية والتي تنمي الانفعالات السلبية.

ــ في كتابك "رسائل في التنوير العمومي" قدمت روشتة لعلاج مظاهر التدين الشكلي, والتطرف الديني الذي لم يحمل سلاحًا بعد, متي يمكن أن تتحول هذه الرسائل لواقع علي الأرض؟

***سيتحقق ذلك عندما يدرك الجميع حاكمين ومحكومين بأن نمط التدين الذي ورثناه عن فقه عصر التوسعات الإمبراطورية لم يعد مناسبًا لزمن الدولة الوطنية، بل بات يمثل تهديدًا صريحًا للأمن والسلام، وسيتحقق ما رميت إليه في "التنوير العمومي" عندما يدرك الجميع أن الإصلاح الديني مطلب أمني وتنموي، وهو بعد كل ذلك حاجة حيوية لأجل حفظ الدين نفسه.**

ـ متي وكيف يتحرر الله من أسر الفقهاء والمتطرفين؟

***لأجل استرداد الله الذي اختطفه الفقهاء والمتطرفون لابد من تحديث الخطاب الديني، لابد من تخليص الخطاب الديني من مفاهيم القدماء، مثل الطاعة، والبيعة، والجماعة، وأهل الذمة، والولاء والبراء، ودار الحرب ودار الإسلام، إلخ.**

لابد من تخليص الخطاب الديني من الانفعالات السلبية، من قبيل انفعالات الغضب والغيرة والثأر والخوف، والتي يعتبرها بعض الخطباء -ويا للأسف- من أخلاق المؤمن؛ إذ يكثرون من ترديد عبارة "الغضب لله"، و"الغيرة لله"، و"الخوف من الله"، بينما حين يملأ الغضب أو الغيرة أو الخوف القلب لا يترك فيه لله من مكان؛ فهذه في آخر المطاف

بمثابة انفعالات سلبية سرعان ما تنتهي إلى تدمير القدرة على العيش المشترك.

ـ هل مطلب العلمانية يتماشي ومجتمعاتنا العربية؟

***معنى العلمانية أن تقف الدولة على مسافة واحدة من كل الأديان والمذاهب والتيارات الدينية، أي ما يسمى بالحياد الديني والمذهبي للدولة.**

دور الدولة بشكل عام هو تحسين ظروف الحياة الدنيوية، من قبيل شق الطرق، وتشييد القناطر، وبناء المصانع، إلخ، وكل هذا لا يتحقق إلا في الحياة الدنيا، ثم أننا نطالب الدولة بهذه الأشياء حتى مع علمنا بأنها في الدنيا تنفع "المؤمن الناجي" و"الكافر الهالك" على حد سواء، ولن تنفع "المؤمن الناجي" في الآخرة. بل ندرك بالحس السليم بأن الحياة في الآخرة ليست مهمة الدولة بأي حال من الأحوال، وليست مهمة الآخرين في آخر الحساب، بل كل شخص مسئول عن رهانه بمفرده طالما (لا تزر وازرة وزر أخرى)، وأن لا أحد يملك اليقين حول مآله الأخروي مهما فعل، أو ظن أنه فعل. أعتقد أن هنا بالذات يكمن مبدأ المرجئة قديما (فرقة من فرق علم الكلام.(

ـ كيف تتحول تنظيرات الإصلاح الديني لواقع ملموس؟

***سيصبح ذلك ممكنًا عندما تُترجم التنظيرات إلى برامج إصلاحية واقعية فيما يخص خطب الجمعة، ومناهج التعليم الديني، وبرامج الإعلام ذي الصبغة الدينية، ونحو ذلك. البوادر بادية، وثمة علماء دين بدأوا ينتفضون ضد "الجهل المقدس" لأجل استرداد إنسانيتهم. لكن ينتظرنا الكثير من الجهد والعمل.**
قلت "إذا لم تكن لديك حلولا لمشاكل الناس فقل لهم: الإسلام هو الحل, لن يفهموا ولكن لا أحد سيجرؤ علي الاعتراض!"

"الإسلام هو الحل"، هذا هو الشعار الذي سوق له الإسلام السياسي سواء في المغرب أو مصر أو في كل مكان، أن تقول "الإسلام هو الحل" معناه ألا يكون لديك أي حل، بل معناه ألا تكون لديك أصلًا أي مسألة واضحة، لأن ادعاء أن الإسلام هو الحل يقتضي طرح السؤال أولا: أين المسألة؟ أن ترفع شعار الإسلام هو الحل، بمناسبة أو بدون مناسبة، معناه أنك فقط تريد أن تحرج المسلمين بالإسلام تمامًا مثل ذلك الشخص الذي يقول لك "إن شاء الله" لكي لا يلزم نفسه بأي وعد نهائي، أو برنامج عمل واضح، وفي آخر المطاف هو يريد أن يخرسك باسم مشيئة الله. هذا هو مغزى الإحراج بالدين.

ـ ما هو دور المثقف في المواجهة الفكرية للإرهاب؟

***دوره الأساس هو التنوير العمومي. وهذا أعز ما يطلب في هذه الظروف المشحونة بالفتن والحقد والكراهية، لم يعد المثقف التنويري تعوزه الوسائل، فهى متوفرة في زمن ثورة المعرفة والتواصل، يحتاج فقط إلى الأسلوب المناسب والذي أختزله في ثلاث كلمات: البساطة، الوضوح، والمصداقية.**

كتاب السلام عليكم خطاب إلى المسلمين

عن الكتاب

يتوجّه سعيد ناشيد بهذا الكتاب إلى المسلم الحائر إزاء الظروف الصعبة التي يعيشها مادياً وروحياً... ظروف ناتجة عن هيئة خطاب ديني يقوم على أفكار الخوف والتخويف من عذاب الله، ومن عذاب القبر، ومن أهوال القيامة، ومن كيد النساء، والطاغوت. خطاب يقوم على منطق الطاعة، وأن السلف أفضل من الخلّف، والمسلم أفضل من الذمّي، والحاكم أفضل من الرعيّة... خطاب يركّز على مفاهيم: دار الحرب ودار الإسلام، الولاء والبراء، التدافع، الإحتراب، الغنيمة، السبي... يعتبر ناشيد أننا لكي نواجه أسباب تخلفنا يجب أن تكون لنا الجرأة على مواجهة هذا الخطاب، ورفض الجرائم التي اقترفت ولا تزال تُقترف باسم الإسلام: "لكي تحفظوا دينكم، عليكم العمل على تحرير الدين من الخطاب... فمن أجل حفظ الدين يحتاج الخطاب الديني إلى آليات النقد بلا أدنى تردّد... ذلك أن الخطاب الديني السائد في مساجدنا ومجالسنا ومدارسنا لا ينمّي لدينا القدرة على التفكير الحرّ، والمحبّة الصادقة، والإحترام المتبادل، بل عكس ذلك، خطاب يراهن على تأجيج مشاعر الرهبة والترهيب من كل شيء وينمّي ثقافة التسليم والطاعة والخوف...". في هذا الكتاب دعوة إلى التخلص من مشاعر الخوف والكراهية، باعتبارها مشاعر انحطاط، والتمسك بالدين الفطري الإنساني الكامن في الضمير والوجدان، والذي يقوم على محبة الله وليس الخوف منه.

كتاب قلق في العقيدة – سعيد ناشيد

4مارس، 2017

هذا الكتاب محاورَات تُحاول المساهمة، بقدر المتاح، في بناء تصور للإصلاح اللاّهوتي، يسمح بنهوض الذات ورقي الطبائع والوجدان وبإشاعة تصور جديد لعلاقة الإنسان بالعقيدة وبالأديان، محاورات أجراها المؤلف وأمضاها في موقع الأوان مع نخبة مع المحاورين الأشدّاء والأكفاء.
تراهن هذه المحاورات على عودة المثقف الإصلاحي إلى أسلوب المحاورات السّقراطية، وتدعونا إلى إستكشاف نمط جديد من إنتاج المعرفة، قائم على المشاركة والتواصل بدل الإنكفاء في أبراج وهم الإستعلاء الثقافي، لا سيما وقد انكشفت أمامنا اليوم ساحة عمومية (آغورا) جديدة، اسمها الإنترنت، فلا عذر لمن تأسرهم أسطورة الذات المنتجة للمعرفة، ولا عذر لمن يطلب الإنكفاء سبيلاً أو يبتغيه بديلاً.
تحتفي هذه المحاورات بآداب الحوار ويقيم الحب وأخلاق العيش، وهي قبل ذلك تحتفي، أو تحاول الإحتفاء، بثقافة النزوع نحو التنسيب والتشكيك والقدرة على العيش الحرّ بلا حقائق مطلقة ومن دون يقين ثابت يعتقل العقل ويشلُّ الإرادة، إنها دعوة صريحة إلى إستبدال شرائع الخوف والعُنف بشعائر العشق والحب والحرية.

سعيد ناشيد..الموروث الفقهي أدى إلى "عسكرة" المفاهيم الدينية

نَبَّهَ سعيد ناشيد المفكر الديني إلى خطورة الخطاب الإعلامي الذي يتلقاه الشباب من طرف عدد من الشيوخ و الدعاة عبر وسائل الاعلام، و الذين يستعيضون عن الخطاب المباشر في التحريض على العنف و التطرف بمفاهيم قد لا يتنبه إليها كثيرون و التي تعمل على الدفع بالشباب إلى تبني الفكر المتطرف.

ووقف ناشيد خلال الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية "درر" للتنمية و الثقافة بتطوان اليوم السبت على أهم المسلمات التي يتبناها خطاب الفكر المتطرف، و منها تصور الحياة على أنها صراع عنيف و تناحر بين الحق و الباطل، و التي تكون لها انعكاسات واضحة و سريعة و خطيرة تمس بشكل مباشر كل مفاهيم التوافق و التسامح.

و اعتبر ناشيد أن من خلفيات هذه المسلمات هو الموروث الفقهي الذي ينطوي على هذا الصراع، و الذي يُجْمِعُ على أن الوظيفة الأولى و الأساسية لـ"الخليفة"/الدولة هي "الجهاد" و حماية الثغور، و هو ما يشكل محط إجماع فقهي، وهو ما أدى بحسب ناشيد دائما، إلى "عسكرة" مفاهيم الدين.

و أوضح ذات المتحدث أن "الإسلام السياسي" بمختلف تلاوينه عمل على تطوير هذه الفكرة، بل و عمل على محو كل القيود الموضوعة على "الجهاد"، إلى درجة أن البعض يعتبر القتال/"الجهاد"، فرض عين على المسلمين، و هو ما يتعارض و القراءة الصحيحة للخطاب القرآني.

مرفقات

سعيد ناشيد.. كاتب مغربى له مجموعة من الإنجازات والمؤلفات أبرزها

بااحث مغربي في الفلسفة والإصلاح الديني، ورئيس مركز الحوار العمومي والدراسات المعاصرة (الرباط). صدر له عدد من الكتب، منها "التداوي بالفلسفة"، و"دليل التدين العاقل"، و"قلق في العقيدة" و"الوجود والعزاء". له مساهمات في بعض المؤلفات الجماعية، من بينها: كتاب بالإنجليزية تحت إشراف المستشرق البريطاني ستيفن ألف، بعنوان Reforming Islam:Progressive Voices From the Arab Muslim World، 2015.

- **الاختيار العلماني وأسطورة النموذج**
- **التداوي بالفلسفة**
- **الوجود والعزاء**

من مقالاته

كيف نتعامل كحداثيين مغاربة مع القرآن الكريم؟

يعترضُ علينا البعض باستعمال آيات قرآنية تبدو كأنها تناقض قناعاتنا الإنسانية والحقوقية، وقصدُهُ إحراجنا بـ"النص المقدس". كيف نواجه الموقف؟ هناك منّا من يضطرّ إلى إنكار الدين ابتغاء إنكار الحجّة، وهذا خيار شخصيّ لا يفيد كثيرًا في تغيير عقلية المجتمع؛ وهناك منا من يلجأ إلى التأويل لحمل النص على غير ظاهره، وهذا خيار متاح منذ المعتزلة قديما، إلى الجابري مؤخرا؛ لكن البعض الآخر -وأنا واحد منهم- يرفض الدخول في نزال التأويل طالما قواعد النزال مختلة ابتداء، وبالتالي يجبُ العودة إلى سؤال المبدأ، ما وظيفة القرآن أوّلا؟

بإيجاز أقول، للقرآن وظيفتان:

الوظيفة الأولى للقرآن هي الوظيفة التعبدية، بحيث نصلي به، ونقرؤه قراءة تعبدية. أثناء العبادة لا يهم المعنى ولا اللغة. فمعظم مسلمي العالم ليسوا عربا ولا يفقهون شيئا من العربية، إلا أن قراءتهم للقرآن بالعربية في العبادة عمل مأجور.

الوظيفة الثانية هي استنباط القيم التي تخاطب الإنسان في شموليته بدل استنباط الأحكام التي تخاطب بشرًا محدّدين بسياق التنزيل، ومعرّضة للنسخ والتعطيل. إن القيم الأساسية التي تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، ولا تقبل التعطيل والنسخ والتقييد مهما كانت الظروف لهي قيم الرحمة، المحبة، الحكمة، كظم الغيظ، العفو عن الناس، وما إلى ذلك.

إننا كحداثيين مغاربة نعتبر القرآن الكريم تراثا روحيا إنسانيا ينبغي أن يحظى باحترام الجميع، لكننا ينبغي أن نحميه عن نوعين من الاستعمال:

الاستعمال الإيديولوجي في الصراع من أجل السلطة. وهو الاستعمال الذي كان ينتهي إلى الفتن على الدوام، منذ فتنة التحكيم في عهد علي ومعاوية، إلى فتنة "القرآن دستورنا" في سياق كان يسمى بـ"الربيع العربي."

الاستعمال السحري الذي يسعى إلى التأثير على العلاقة السببية في الطبيعة، وتدمير أسس الفكر العلمي، من قبيل خرافات الرقية، والصرع، وطرد الأرواح الشريرة.

مجمل القول إن المحتجين علينا بنصوص القرآن، كثيرًا ما ينطبق عليهم قول علي بن أبي طالب، "كلمة حق يراد بها باطل". وبهذا القول وجب التذكير.

مَا نَتَعلّمُهُ مِن سِيُون أسِ◌◌ِيدُون وما تَعلّمْناه

سيون أسيدون.. مُناضلٌ يساريٌ مَغربيٌ، رجلٌ في مُنتهى النبل والنزاهة، مُثقفٌ من أصول يهودية، وإن كان هو نفسه، لا يعتقد بأن للأصول الدينية أية أهمية في تحديد قيم المواطنة.

فالرجل داعيةٌ كبيرٌ لقيم الثورة الفرنسية وفلسفة التنوير، لم يقع في غواية المُناخ الثقافي العالمي المُعادي للحداثة؛ وهكذا كان وظل دائماً من بين قلة قليلة من المُثقفين من أصول يهودية، والذين لم ينجذبوا إلى وعود ما بعد الحداثة الغراء، يُضاف إسمه إذن إلى طينة كبار الفكر الإنساني الحر، من قبيل نعوم تشومسكي وجورج سوروس.

ولست بأي حال من الأحوال، أريد الوقوع في أسطورة الأصول الثابتة والقول بأن هؤلاء المُفكرين اليهود موجودون فقط لأنهم يُمثلون حالة مُضادة لأصولهم الدينية أو الثقافية، فذلك هو نفس ما يقوله بعض الغربيين عن المُسلم الحداثي والعلماني، حين يقال عنه بأنه حداثي أو علماني ضداً على أصوله الدينية والثقافية. فالأصُول نفسها ليست أكثر من تأويل يخدم مَطامح مُحددة في زمن مُحدد، فطموحنا هو ما يصنع أصولنا.

المُهم أنني أود القول بأن أسيدون، كما رأيته وأرَاه دائماً، امتدادٌ أصيلٌ للمثقف المغربي الأصيل، والمنحدر من تقاليد العقلانية الرشدية، لفيلسوف قرطبة، يا زمان الوصل بالأندلس!! فهل كانت في روح ابن رشد المنفوخة في التاريخ المغربي، مَناعة للمثقف

المَغربي والذي ظل عموماً، مُحصناً من مَوْجات ما بعد الحداثة ومُترفعاً عنها؟ نُفكر أيضاً، في الجابري، العروي، أومليل، حميش وآخرون أعتذر لهم مسبقاً ومن دون قيد ولا شرط.

ابن رشد.. هذا العقل المُتعب والمُنهك داخل الزمن المغربي، بل والمغاربي أيضاً هذا العقل الذي ربما قيد له النظام التعليمي التونسي أن يعاود الإسراء بين نخبة جديدة وطليعية من أبناء العهد التونسي الجديد... ربما يكون أعنف انتقادٍ تعرض له ابن رشد، هو من طرف الفيلسوف المَرجعي للمحافظين الجُدد، ليو شتراوس، ويُمكن العودة بهذا الخصوص إلى مُؤلفه الشهير: ما هي الفلسفة السياسية؟ وليس في نيتي أن أثقل الحديث عن سيون أسيدون بأي تفاصيل حول مناولة ليو شتراوس للمثن الرشدي، على الأقل ليس الآن.

لم ألتق بسيون أسيدون سوى مرة واحدة، قبل حَوالي عقد، كانت كافية لتحديد الموضوع الذي ظل يؤرقني خلال السنوات الماضية. مُناسبة اللقاء كانت حين استدعيناه لإلقاء كلمة ضمن مُؤتمر لتأسيس الفرع المغربي لإحدى مُنظمات ما بات يُعرف بحركة العولمة البديلة. لم يكن عملنا في المستوى المطلوب، كنا نعكس أزمة استنبات قيم المُواطَنة في بيئات تقوم على التشرذم والزعامات الفردية.

وقد أثارني في كلمته، أنه كان حريصاً على توجيهنا إلى عدم الإنزياح عن أفق التنوير وقيم الثورة الفرنسية، وهو التوجيه الذي لم أفهمه وقتها كما كان ينبغي، لكنني بعد أن توصلت، ومن أصدقاء فرنسيين، بالعديد من الكتب، الوثائق والمنشورات التي أصدرتها الحركة التي قصدنا تأسيسها، أدركت بالتحديد ما كان سيون أسيدون ينوي تحذيرنا منه.

لقد لاحظت الحُضور القوي لفلاسفة ما يُسمى باليسار النيتشوي، دِيريدا، بُودريار، أونفراي وغيرهم، داخل حركة العولمة البديلة، ولاحظت أيضاً، أن ثمة اتجاه يساري عالمي وقوي، يجعل نقد الرأسمالية العالمية، أو العولمة الرأسمالية، امتداداً لتقاليد نقد الحداثة والعقلانية الغربية والمنحدرة بدورها، من تقليد ثقافي ألماني، بحسب ما يُلاحظه الفيلسوف الألماني هابرماس.

إنها اليوم، تقاليد انتقلت إلى اليسار العالمي، واستدمجها داخل وعيه وأدبياته، لكنها تلتقي استراتيجياً مع رؤية المُحافظين والمحافظين الجُدد، ومع رؤية الأصوليات الدينية المُناهضة للحداثة ومن كافة الديانات.

كان تحذير سيون أسيدو، قد مَنَحتني نباهة مُبكرة مكنتني من أن أتعامل نقدياً مع أدبيات مُنظمات اليسار العالمي، والمَطبوعة في الغالب، بالنزعة المُعادية للحداثة، لكنني اكتشفت أيضاً، أن الرجل، هو من بين المناضلين الأوائل والذين اختاروا موقع مُناهضة الحركة الصهيونية باعتبارها جزء لا يتجزء من قيم الثورة العالمية المُعادية للحداثة والتنوير.

لكن سؤالاً بات يستبد بالدهن ويقلق البال، وهو هل ثمة خلفية ثقافية تربط اليمين اليهودي والحركة الصهيونية بمشروع الثورة العالمية المضادة للحداثة والتنوير؟

ليس المقصود مرة أخرى، التنقيب الأسطوري عن الجواهر الثابتة داخل الثقافات، فقد قلنا أن الأصول والجواهر لا تعدو كونها مجرد تأويل، لكن الباعث على السؤال، أننا نفترض دائماً وجود مَصالح مُعممة، أو تم تعميمها في ظروف معينة، وتفرض طغيان نوع من مُسلمات التفكير المُتعارف حولها، لأصول ومرجعيات ثقافية أو دينية مُحددة.

تقودنا هذه المُلاحظة، إلى أن نخاطر بالإنغماس في بعض الخلفيات الثاوية داخل الأصول الدينية لليمين الديني اليهودي، ورُبما تمنحنا علمانيتنا الأصيلة والأصلية، مشروعية الدراسة الموضوعية للأديان وللاتجاهات الدينية الفاعلة في السياسية الدولية اليوم، ومع ذلك ولكي لا نثقل مرة أخرى حديثنا عن سيون أسيدون.

بتفاصيل غارقة في تحليل اللاوعي الديني الجماعي، سنكتفي بظاهرة دينية هي أول ما يقفز إلى أنظار الباحث عن مُمكنات الحداثة والعلمانية داخل الفكر الإسرائيلي الديني. ومرة أخرى فإننا نربأ بأنفسنا عن الإنجرار خلف الدعاية التي تحاول أن ترينا إسرائيل كدولة حداثية أو علمانية.

بلغنا الحديث عن حَنُوكة.. وحنوكة هي من بين أهم الأعياد الدينية التي يحتفلُ بها الشعب اليهودي، إذ أنه مرة كل سنة، وطيلة ثمانية أيام مُتتالية، يتبادل اليهود الهدايا والزيارات ويُشعلون الشمعَدان المُقدس في بيوتهم، ويُقيمون الأدعية والصلوات؛ وليس في ذلك ما يثير الأسئلة المقلقة، لولا أن الأمر يتعلق بعيد يُخلد لذكرى انتصار اليهود على اليونانيين خلال القرن الأول قبل الميلاد.

ليس الانتصار اليهودي على اليونانيين، هو انتصارهم الوحيد في التاريخ، لكنه الانتصار الوحيد الذي ما يزالون يحتفلون به ويُقدسونه، بل ثمة في الكتاب المُقدس، سفر كامل، تحت مُسمى سفر المُكابيين، وهو الإسم الذي اصطلح على رجال الدين اليهود والذين قادوا معركة النصر على اليونانيين، والمُكابي في الأصل، كلمة يونانية تعني المطرقة.

فهل بوسعنا أن ننسى بأن المطرقة هي الأداة التي وضعها نيتشه بين يدي زارادشت، لتفكيك وتقويض المشروع والحداثي العقلاني الغربي ومُناهضة فلسفة التنوير الأوروبي!

لكن، لماذا هذه الأهمية الدينية لانتصار عسكري قديم، قد لا يبدو للوهلة الأولى أنه مُفيد في الحاضر ومُفيد لهذا الحاضر؟

باقتضاب شديد –وقد نعود إلى التفاصيل في مناسبة لاحقة- فأمَامَ الغزو اليوناني القديم لأرض إسرائيل، لم يَصطدم اليهود بمُجرد ثقافة وثنية أو قائمة على الأساطير الوثنية، ومِما كان يُمكن لأتباع اليهودية أن ينظروا إليه نظرة استعلاء، تحفظ لهم فرضية شعب الله المُختار؛ فهذه المرة، وجدت ألواح موسى ومزامير داوود، نفسها أما تحدي حضاري جديد وغير مسبوق، فقد اضطرت لمُجابهة منطق أرسطو وهندسة أوقليدس وفلسفة سقراط.

وباختصار فقد وجد الشعب اليهودي نفسه في مُواجهة تحدي المشروع العقلاني الهيليني، إنه التحدي الذي ما يزال مُمتداً إلى اليوم، امتداد العقلانية الغربية، وهذا رغم النصر العسكري القديم والمحدود أيضاً في الزمان والمكان، ومن هنا أهمية الاحتفال بحنوكة بالنسبة لليهود، سواء كانوا في إسرائيل، أو كانوا داخل المجتمعات الغربية، ولا أدل على أهمية العيد من كون الرؤساء الأمريكيين يمنحونه أهمية بروتوكولية بالغة.
لقد كتب رئيس المؤتمر اليهودي الكندي لمنطقة كيك، جوزيف غاباي، يقول: "إن الرغبة في اختزال الإنسانية في مُجرد مُعادلة، ونفي البُعد الروحي، ذلك هو ما يُسمى في التقليد اليهودي بالظلامية، وأما تأويل الآية الثانية من سِفر التكوين "وقد كانت الظلمة على وجه البسيطة"، فإن المقصود بالظلمة هو زمن اليونانيين.

حين ينتقد ليو شتراوس، فيلسوفُ قرطبة ابن رشد، فلأنه يرى فيه امتداداً لأثينا اليونانية، وليس لأورشليم المُكابية، إن ليو شتراوس يعرف إذن، ماذا يقصد، إنه يريد من الحضارة المُعاصرة أن تتخلص من التقليد الأنطولوجي الإسلامي كما طوره ابن رشد، والقاضي بالفصل بين المُستوى الإلهي والمستوى البشري، بمعنى بين الله والتاريخ.

وهكذا فهمتُ في المُقابل، إلى أي حد أن سِيُون أسيدون، رفقة مُثقفين ومُناضلين مغاربة من أصول يهودية، لا يقف إنجازهم عند حدود رفض الذهاب إلى إسرائيل لنصرة اليمين الإسرائيلي المُتطرف، كما فعل بأسف، مئات من اليهود المغاربة، وقد صادفت الكثير منهم بمدينة فاس المغربية، والتي أوْدَعَ فيها ابن رشد روحاً مَشروخة، أجدهم أحياناً، مُسربلين بلباس اليمين الإسرائيلي المُتشدد.

هؤلاء بالذات، كان من بينهم من يُذرف دُموع الذكريات الجميلة وهو يُجيل بصره في إحدى أزقة المدينة العتيقة، أرى في عَبراتهم براءة الإنسان قبل أن تفسدها يد الإله، وقبل أن يتدخل الإله في كل تفاصيل حياة البشر...

سيون أسيدون، لم يُقرر الوفاء لأرضه، ولمدافن أجداده المغاربة فقط، وإنما فعل الأهم، الوفاء للروح الرُشدية المغربية والتي كدنا نخذلها جميعاً، إنه لم يقرر فقط، عدم التنكر لمغربيته، وإنما قرر أن يُعلمنا كيف نكون مغاربة بالفعل، ومنه نتعلم اليوم كيف نكون كذلك أو لا نكون.

الفتنة والإصلاح([1])

سأنطلق - بعد إذنكم - من حكاية هي من وحي تجربتي الحياتيّة السّابقة، عساني أفتح بها شهيّة الإنصات، وحين أقول حياتي السّابقة؛ فلإدراكي أنّ الحياة حيوات تتخلّلها ميتات، بعضها سابق، وبعضها لاحق، والأهمّ عندنا أن نتحمّل كلّ الميتات بحيويّة وقناعة، وأن نعيش كلّ الحيوات بكثافة واقتناع، ولأنّني أوشك - بهذا البيان الوجوديّ - أن أنسى الحكاية - وهذا لا يليق - سأعود إليها حالًا، وكما يقال: العود أحمد.

في فترة مراهقتي - وهذا ممّا لا أزال أذكره جيّدًا - كنت كلّما أُغضبتُ أمّي في أمر من الأمور، جاء ردّها بترديد الآية القرآنيّة الآتية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التّغابن: (14)]، غير أنّني ضقتُ ذرعًا بحجّتها المتكررة بلا كلل، فقرّرت أن أسكتها باعتماد نفس السّند الّذي تشهره في وجهي، فقلت لها: ما هكذا يُقرأ القرآن يا أمّي، لا بدّ أن تتابعي القراءة، ولا تتوقّفي عند {ويل للمصلّين}، فهذا لا يجوز، ثمّ أحضرتُ المصحف وتابعتُ القراءة بنفسي جهرًا، عسى أن أعثر بين ثنايا العبارة عن مخرج أو متّسع، فبدأتُ أقرأ} :**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ] {**التّغابن: (14)]، فأجابتني بنبرة صوت مرتفعة: لاحِظ أنّ فعل الأمر - هنا - واضح وصريح) **احذروهم**(، فلا يمكن لله أن يأمرنا بفعل شيء محدّد، ثمّ يكون فعل الأمر زائدًا عن الحاجة، أو بلا أي معنى، ثمّ عليك أن تتابع القراءة بدورك فلا تنكر عليّ ما تمنحه لنفسك، تابعتُ متهيّبًا مرتابًا، وأنا أواصل جهرًا قراءة ما تبقّى من العبارة، إلى أن بلغتُ الآية الموليّة: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التّغابن: (15)]، قالت: صدق الله العظيم، هل تسمع؟ إنّه يقول: {أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، فما معنى الفتنة هنا؟ وقتها لم أعد أرى أمامي من مخرج سوى أن أغلق المصحف وأضعه جانبًا، قبل أن أواجهها بشيء من القسوة: لو كان قلبك طيّبًا يا أمي لما انتبهتِ إلى هذه الآية بالذّات؛ إذ هناك آيات أخرى كثيرات تحمل معان أخرى، فلماذا انتبهت إلى هذه الآية بالذات؟ أجابتني بهدوء غير معهود: ها أنا قد انتبهت، فأين الخطأ؟

نعم، هذا هو السّؤال: أين أخطأت أمّي إن كان ثمّة من خطأ؟

الّذي فهمَته أمّي من الآية؛ هو أنّ الله يأمرها بأن تحذر منّي، طالما أنّ فعل الأمر الوارد في الآية صريح وفصيح) **احذروهم**(، وعلّة التحذير واضحة بلا لبس) **أولادكم فتنة**(، وفي النّهاية نجد أنفسنا أمام مفارقة صارخة.

ما هي هذه المفارقة؟

إذا كان ضمن مقاصد الدّين - والدّين الإسلاميّ تحديدًا - تمجيد الأمومة، وهذا من الواضحات؛ فالنّتيجة هذه المرّة أنّ أمي يجب عليها أن تحذر منّي، فيبدو - هنا - التّناقض صارخًا.

لكن، ما معنى أن يكون ثمّة تناقض؟

معناه - بكلّ بساطة - أن ثمّة خطأ ما في إحدى مراحل التّحليل، هذا ما تقوله قواعد المنطق.

إذن، لا بدّ من مراجعة البناء الاستدلاليّ، ماذا نقصد؟

ابتداء، لا بدّ من التّذكير بأنّ التّناقض الّذي يزعج العقل البرهانيّ لا يزعج العقل الإخباريّ، لماذا؟ لأنّ المركز الحسّيّ للعقل الإخباريّ هو الأذن، والأذن ميّالة بطبعها إلى التّصديق والتّسليم، لذلك؛ اعتدنا على ربط السّمع بالطاعة، فنقول بالجمع والإجمال: "سمعًا وطاعة"، لذلك أيضًا؛ يكفي أن يقال: "عن فلان بن فلان أن فلانًا قال"، حتّى تميل الأذن إلى التّصديق وفق طبائع العقل الإخباريّ، أو يكفي أن يقال بلغة الشّيوخ المعاصرين، "حدّثني ثقة"، أو "حدثني أحد الثقاة"، حتى تميل الأذن المجبولة على التصديق إلى تصديق الخبر بعقل معطل لا يعمل. ثم إنّ الأذن قد تقبل بروايتين متناقضتين، وتترك العهدة على الرّاوي في آخر المطاف، بلا مشكلة. أما المركز الحسي للعقل البرهاني فهو العين. وإذا كانت الأذن ميّالة إلى التّصديق، فإنّ العين ميّالة إلى التّدقيق.

ما مناسبة هذا التّذكير؟

مناسبته؛ أنّ موروثنا الدّينيّ قد استند إلى العقل الإخباريّ جملة وتفصيلًا: الرّواية، والعنعنة، والحديث، والأخبار، ...إلخ، على أنّنا عندما نتحدّث عن العقل الإخباريّ؛ فنحن لا نتحدّث عن عقل يروم إلى إنتاج المعرفة أو المشاركة في إنتاجها؛ بل نتحدّث عن عقل يروم إلى تناقلها فقط، فليست "الحقيقة" عند العقل الإخباريّ اكتشافًا أو إبداعًا أو ابتكارًا أو تفكيرًا متجدّدًا، لكنّها مجرّد خبر يتناقله الواحد عن الآخر.

لذلك؛ ليس مستغربًا أن نرى الموروث الدّينيّ حافلًا بعشرات التّناقضات الصّارخة الّتي لا تزعجه، ولا يبدو أنّها أزعجته في أيّ وقت من الأوقات، طالما التّناقض - كما قلنا - لا

يزعج العقل الإخباريّ، وسأعطيكم بعض الأمثلة المختصرة عن تناقضات جذريّة لم تزعج العقل الإخباريّ في الإسلام، أو دعنا نستعرضها في شكل تساؤلات مفتوحة:

كيف يستقيم وجود حديث نبويّ يقول: {لا تكتبوا عنّي شيئًا}، أو {لا تكتبوا عنّي غير القرآن}، مع وجود عدد من كتب الصّحاح، أحدها يعدّه البعض ثاني أصحّ كتاب بعد كتاب الله!؟

كيف تجتمع صورة الاختلاط الطّبيعيّ بين الجنسين في مناسك الحج - وهو أقدس مكان عند المسلمين - مع صورة الفصل الصّارم - والمهين أحيانًا - بين الجنسين في معظم مساجد المعمورة!

كيف يجتمع حديث: {النّساء ناقصات عقل ودين} مع حقيقة أن أزيَدَ من ألفَي حديث من الصّحاح مأخوذ عمّا روته عائشة، ما يعني أن نصف ديننا مأخوذ عن امرأة!؟

في واقع الحال؛ بوسعنا أن نستعرض عشرات المفارقات الّتي لا يبدو أنّها أزعجت الموروث الدّينيّ المستند إلى العقل الإخباريّ.

إذا كان ذلك هو شأن العقل الإخباريّ؛ فمن الواضح - في المقابل - أنّ الانسجام هو مطلب العقل البرهانيّ، لذلك؛ فإنّنا نعيد طرح السّؤال انطلاقًا من معايير العقل البرهانيّ:

أين أخطأت أمي؟

هل أخطأت في فهم الدّلالة اللّفظة؟ لا يبدو الأمر كذلك.

هل ثمّة من دلالات أخرى محتملة؟ لا دليل على ذلك.

أين الخطأ؟

ثلاثة أخطاء

فرضيّتنا في الموضوع؛ أن الخطأ كامن في مستويات أعمق وأشمل، وتتعدّى فهم أو سوء فهم أمّي لمنطوق آيات النّصّ القرآنيّ، الخطأ كامن في علاقة الإنسان بالقرآن - تحديدًا - أو على وجه التّحديد، ثمّة ثلاثة أخطاء استبدّت بالعقل الدّينيّ أثناء تعامله مع الخطاب القرآنيّ، ولا بدّ من العمل على استجلائها.

الخطأ الأوّل: عدّ أفعال الأمر الواردة في الخطاب القرآنيّ أوامر للمسلمين كافّة:

ثمّة اعتقاد فقهيّ مهيمن مفاده أنّ جميع أفعال الأمر الواردة في الخطاب القرآنيّ موجّهة إلى المسلمين كافّة - والمسلمات أحيانًا - في كلّ زمان ومكان، من قبيل: قاتلوا، جاهدوا، انفروا،

تربّصوا، أطيعوا، اقتلوهم، احذروهم، اهجروهن، اضربوهن، ...إلخ، هل يصمد مثل هذا الاعتقاد أمام اختبار إعمال العقل السّليم في نصوص الدّين؟ لا أظنّ، ولنبدأ خطوة فخطوة؛ إنّ الاعتقاد بأنّ أفعال الأمر تلك؛ هي أوامر إلهيّة لجميع المسلمين في كلّ زمان وكلّ مكان، سيجعل منها فرائض دينيّة، على أنّ الأمر ليس كذلك بأي حال من الأحوال؛ فإنّ الأوامر الواردة في بنية الخطاب القرآنيّ لها مخاطبون معيّنون، ومحدّدون ومحصورون في الزّمان والمكان والسّياق التّنزيليّ للمسألة أو السّؤال، نفس المبدأ ينطبق على الآية المذكورة سابقًا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)} [التّغابن: (14- 15)]، فإنّ المخاطب فيها وفق السّياق التّنزيليّ للمسألة محصور - زمانًا ومكانًا - في أولئك المسلمين الّذين تأخّروا في الهجرة والالتحاق بالرّسول، سواء بسبب ارتباطاتهم الأسريّة أو التزاماتهم الماليّة، وهذا كل ما في الأمر، أمّا تعميم فعل الأمر)**احذروهم** (على كلّ الأسر المسلمة في كلّ زمان ومكان - منذ نزول الآية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها - فتلك خطيئة فقهيّة وكارثة أخلاقيّة، وإن كان تعميم الأوامر يغري العقل الفقهيّ المهجوس بالتّوسعات الإمبراطوريّة المرتبطة بالعصر الوسيط، إلّا أنّ ذلك كلّه قد ضيّع روح (أخلّ بجوهر) القرآن في الحساب الأخير.

الخطأ الثّاني: الاعتماد على ثنائيّة المكّيّ والمدنيّ، وعدّها تندرج ضمن معلوم الدّين بالضّرورة:

لقد جعل الموروث الدّينيّ مركز ثقل الخطاب القرآنيّ محصورًا في المرحلة الثّانية، المرحلة الممتدّة ما بين الهجرة والفتح، وهي المرحلة الّتي حين نستحضر روح القرآن نجدها مجرّد مرحلة انتقاليّة في حياة الدّعوة المحمّدية الّتي غايتها القصوى هي فتح مكة، بمعنى فتح "أم القرى وما حولها"، فعلًا، لعلّ الكمّ الأكبر من الآيات نزل في تلك المرحلة الانتقاليّة، غير أنّ ذلك لا يمنع من الإقرار بأنّها مجرّد مرحلة انتقاليّة في بُعدها الوحيانيّ وشرطها التّنزيليّ، في المقابل؛ فإنّ تقسيم المصحف إلى سور مكيّة وسور مدنيّة، فضلًا عن أنّه تقسيم اعتباطيّ ومضلّل ومحض اجتهاد متكلّف وغير مطابق للواقع؛ لأنّ معظم السّور - المتوسّطة والطّويلة - نزلت آياتها متفرّقة بين مكّة والمدينة، ومنها ما نزل في مكان ثالث، لا هو بمكّة ولا هو بالمدينة، أو في الطّريق بينهما ذهابًا أو إيابًا، إلّا أنّها أقحمت عنوة في جانب معين ضمن ثنائيّة المكّيّ والمدنيّ، ورغم ذلك؛ فإنّ ذلك التّقسيم الثّنائيّ قد حوّل المرحلة الثّانية، الّتي هي مجرّد مرحلة انتقاليّة، مرحلة ما بين الهجرة والفتح، إلى مرحلة مركزيّة تحت مسمّى المرحلة المدنيّة، كأنّما هي الغاية والمرمى، بدل مرحلة الفتح (الّتي هي بمثابة المرحلة المكّيّة الثّانية)، وهو الانزياح الّذي سرعان ما سيُكرّسه اختيار المسلمين للتّقويم الهجريّ، بعد سنوات عن موت الرّسولﷺ.

الخطأ الثّالث: استنباط الأحكام التّنزيليّة من القرآن بدل القيم القرآنيّة:

لقد ركّز موروثنا الدّينيّ جهده الفقهيّ على استنباط الأحكام التّشريعيّة من الخطاب القرآنيّ بدل استنباط القيم الوجدانيّة، وهذا ما ضيّع - في الأخير - روح القرآن وجوهره المكنون؛ فإنّ الأحكام أوامر مقيّدة بظرفَي المكان والزّمان، وهي تخاطب مأمورين محدّدين بالسّياق الاجتماعيّ والشّرط التّنزيليّ، مثلًا؛ إنّ الآيات الّتي تأمر بالهجرة قد انتهى حكمها مباشرة بعد فتح مكة، رغم أنّها لا تزال مثبتة في النّصّ القرآنيّ، ولا نزال نقرؤها ونتعبّد بقراءتها، إنّ الّذي يبقى ساري المفعول ليس الأحكام التّشريعيّة؛ إنّما القيم الوجدانيّة الّتي هي روح الخطاب القرآنيّ في آخر المطاف، تلك الرّوح المنسيّة في غمرة فقه الأحكام، فثمّة قيم إنسانيّة سامية من قبيل: الرّحمة، العفو، المغفرة، كظم الغيظ، ...إلخ، إنّها قيم تعرّضت للتّهميش لقاء الهوس بالأحكام، وبالعودة إلى الآية{ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)** [(التّغابن: (14))]، بوسعنا إذا قصدنا استنباط الأحكام التّشريعيّة كما يفعل العقل الفقهيّ؛ أن نركّز على أحكام العداوة والحذر داخل الأسرة الواحدة، ثمّ نجعل لتلك الأحكام أبوابًا؛ إما تروم التّخفيف أو التّشديد، تبعًا للمزاج الّذي نبتغي، لكن إذا قصدنا استنباط القيم الوجدانيّة - كما يجب أن يفعل العقل الأخلاقيّ - فسيتّجه انتباهنا إلى قيم العفو والصّفح والغفران المدرجة بصريح اللّفظ ضمن الآية: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا}، والحال أنّ الموروث الفقهيّ ركّز على استنباط الأحكام التّشريعيّة بدل استنباط القيم الوجدانيّة، وتلك خطيئته الأصليّة، مثلًا؛ الآية{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**{؛ فإنّ الجهد الّذي قام به موروثنا الفقهيّ لم يهدف إلى استنباط القيمة الوجدانيّة الواضحة بالبداهة، والحسّ السّليم، الرّحمة؛ إنّما انشغل باستنباط الحكم التّشريعيّ "الإمبراطوريّ"، الّذي هو ادّعاء عالميّة "الشّريعة" الإسلاميّة انطلاقًا من صلاحيّتها للعالمين، ثمّ إنّ مشروعيّة الفتوحات والغزو في الأفق الكونيّ، تمامًا، كما يفعل المتطرّفون اليوم، مرّة أخرى؛ فنحن أمام عقل فقهيّ مهجوس بالتّوسعات الإمبراطوريّة الّتي طبعت العصر الوسيط.

ثمّة أمثلة كثيرة عن تهافت استراتيجيّة التّعويل على استنباط الأحكام التّشريعيّة بدل استنباط القيم الوجدانيّة، أذكر بعضًا منها باقتضاب:

ثمّة آية يبدو أنّها - في بعدها القيميّ - أحرجت العقل الفقهيّ، تحيل إلى المحاورة الشّهيرة بين ابني آدم؛ يقول فيها هابيل لأخيه قابيل: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: (28)]، فقد بذل العقل الفقهيّ قصارى جهده لأجل الإجهاز على القيمة الوجدانيّة الأساسيّة لتلك الآية، قيمة عدم الرّدّ على العنف بعنف مضادّ، وذلك بالرّغم من المتن الحديثيّ الّذي يتضمّن حديثًا مشهورًا، يقول: {كونوا

كخير ابني آدم}. والمقصود، كونوا كهابيل الذي لم يشأ أن يردّ على عنف أخيه بعنف مضاد. وبدل ذلك فقد استلهم جل المفسرين والفقهاء أموراً تلغي القيمة الوجدانية للموقف الهابيلي الذي يبدو كما لو أنه يحرج العقل الفقهي المشحون بغرائز الغلبة والقتال. لذلك شرعوا في البحث عن مبررات لأجل تعطيل القيمة الوجدانية للموقف الهابيلي، من قبيل الزّعم بأن قابيل كان مؤمناً موحداً بدوره، وهو ما يبرر التحرُّج الاستثنائي لهابيل، أو يكون المقصود هو عدم المبادأة في القتال، بمعنى أن هابيل أراد أن يقول: (إن كنت ستبدأ بقتلي، ما أنا ببادئ بقتلك)، فيتعلّق الأمر بتحرّج من المبادأة في القتال، وليس تحرّجًا من القتال عينه، ثمّ اتّفق جلّ الفقهاء - في النّهاية - على أنّ حكم هابيل هذا يظلّ منسوخًا ضمن ما يسمّى (نسخ الشّرائع)؛ فانتصر الحكم القابيليّ على القيمة الوجدانيّة، هكذا، ضاعت القيمة الوجدانيّة السّامية لـ"خير ابنَي آدم"، في غمرة الفقه المهجوس بأحكام التوسعات الإمبراطوريّة، ثمّ جاءت مفاهيم العقل الفقهيّ - في النّهاية - كي تُعبّر عن حاجيّات عصر التّوسّعات الإمبراطوريّة.

سلطة المفاهيم

ليست المفاهيم مجرّد وسائل لتبليغ الفكرة أو التّعبير عنها؛ بل لعلّها قوالب جاهزة لصياغة الفكرة، ونحن لا نتكلّم بواسطة المفاهيم وحسب؛ بل نفكر بها أيضًا، لذلك، عندما يستعمل الخطاب الدّينيّ في المساجد أو المدارس - مثلًا - مفاهيم العورة والولاية والجماعة والطّاعة، فإنّ الأمر لا يتعلّق بمجرّد لغة تقليديّة يمكن فهمها بإحالتها إلى مفاهيم الجسد والسّلطة والمجتمع والانضباط؛ إنما يحيل الأمر إلى حمولة فكريّة تؤثّث تصوّرات العقل، وتحدّد نمط السّلوك وأسلوب الحياة، لذلك؛ ليس من المبالغة في شيء أن نعدّ سلطة المعرفة هي سلطة المفاهيم.

إذا كان الأمر كذلك؛ فالملاحظ أنّ المفاهيم الأساسيّة للفكر الدّينيّ في الإسلام، تبقى مفاهيم احترابيّة، من قبيل الجهاد، والقتال، والتّمكين، ودار الحرب ودار الإسلام، والولاء والبراء، والجماعة، والبيعة، والغنيمة، والسّبي، والجزية، ...إلخ، لا سيّما أنّ العصر الّذي تشكّل فيه العقل الفقهيّ كان موسومًا بالتّوسّعات الإمبراطوريّة، كما سبقت الإشارة، وكانت تلك المفاهيم متناغمة مع زمنها إلى حدّ بعيد، زمن العصر الوسيط.

ولأنّ المفاهيم ليست مجرّد أدوات للتّعبير؛ بل هي قوالب لصناعة الأفكار وتوجيه التّفكير، وتحديد نمط السّلوك وأسلوب الحياة؛ فمن الطّبيعيّ أن يحدث انفصام داخل عقل الإنسان المؤمن بين المتخيّل المفاهيميّ الفقهيّ الّذي يحيل إلى عصر الإمبراطوريّات، والعالم الحديث الذي يعبّر عن عصر الدّولة الوطنيّة الحديثة، الّتي يُفتَرض أنّها دولة المؤسّسات والحقّ والقانون.

عود إلى بدء

ضمن الآية الّتي اعتمدناها كمنطلق لهذه المحاضرة، مفهوم أشارت إليه أمّي وكان وقعه على قلبي أشدّ وطأة وقسوة؛ بل لعلّه من أخطر المفاهيم الحاسمة في تحديد مآلات العقل الدّينيّ في الإسلام، إذن، لنعد إلى الآية، ونتأمّل المفهوم:

}يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (15)} [التّغابن: (14 - 15]]

نرى - كما سبق القول - أحد أخطر المفاهيم المؤسّسة للعقل الدّينيّ في الإسلام، وهو مفهوم الفتنة، وقد ورد مفهوم الفتنة في النّصّ القرآنيّ نحو ستين مرّة بدلالات مختلفة، قد تعني ضمن ما تعنيه؛ الابتلاء، أو المحنة، أو الامتحان، أو الخلاف، ...إلخ، لكنّه سيتّخذ مع الموروث الدّينيّ أبعادًا أنطولوجيّة شاملة وبالغة الخطورة: فتنة القبر، فتنة الدّجال، فتنة النّساء، الفتنة النّائمة، الفتنة المتواصلة كقطع اللّيل المظلم في آخر الدّهر، ...إلخ، وعلى هذا النّحو يتصوّر المسلم نفسه وسط حقل من ألغام الفتنة الّتي يصعب النّجاة منها في آخر الحساب، لذلك؛ سرعان ما سينتقل الأمر من الفكر إلى الحياة، ليصير مفهوم الفتنة نوعًا من العصاب الوسواسيّ، هو وسواس الفتنة بالذّات، لا سيّما بالنّظر إلى الأدوار الخطرة الّتي بدأت تضطلع بها شخصيّة الشّيطان داخل الموروث الدّينيّ، الشّيطان الّذي لا يحضر في سيرة النّبيّ لابن هشام - أقدم "كتاب سيرة" - إلّا بنحو باهت وهامشيّ، سرعان ما سيُضخّمه الموروث الدّينيّ، ويمنحه صلاحيّات ووظائف كبرى وخارقة إلى درجة أنّه صار يحاصر المسلم في كلّ تفاصيل يومه؛ بل قد يشاركه المأكل إن نسي أن يسمّي الله، وقد يشاركه حتّى في نسله - ويا للهول! - ثمّ إنّه قد يلحق به إلى داخل حرمة المسجد، ويتسلّل بين صفوف المصلّين - ويا للعجب! - بهذا النّحو يصبح مفهوم الفتنة مدعاة لنوع من أنواع العصاب الوسواسيّ الجماعيّ الّذي ربّما لم ينج منه سوى القليلين.

وبهذا المعنى؛ يصبح مفهوم الفتنة نفسه منتجًا للفتنة.

ألم نقل: إنّ المفاهيم حاسمة؟

مسألة أساسيّة، ولأنّ التّصوّرات اللّاهوتية سرعان ما تنعكس على التّصوّرات السّياسيّة؛ فستصبح الفتنة - في بعدها اللّاهوتيّ - مدعاة للفتنة السّياسيّة، وهكذا كان.

لكن، ما الّذي كان؟

الّذي كان؛ هو أنّه سرعان ما اتّخذ الشّيطان أشكالًا سياسيّة تُستَثمر لتأجيج غرائز الحيطة والحذر والتّوجّس في المستوى السّياسيّ، من أمثلة ذلك؛ شخصيّة أبو لؤلؤة عند الصّحابة،

شخصيّة عبد الله بن سبأ عند المؤرّخين القدامى، شخصيّة لورانس العرب حديثًا، دولة أمريكا باعتبارها الشّيطان الأكبر في الخطاب الخمينيّ الإيرانيّ، وصولًا إلى صورة المرأة والأقلّيات والفلاسفة والقوى التّقدّميّة في مجمل الخطاب الدّينيّ.

طبيعيّ أن يكون تاريخ الإسلام تاريخ فتن لا أوّل لها ولا آخر، فتن لا تدرؤها إلّا فترات الاستبداد، فتن سياسيّة متسلسلة منذ موقعة الجمل إلى غاية اليوم.

غير أن الحدث المرجعيّ للفتنة في بعدها السّياسيّ - وهذا ما لا يخفى - يبقى هو الفتنة الكبرى.

الأساس النّظريّ للفتنة الكبرى

يتوجب علينا التّذكير بأنّ كلّ مفهوم - هو في حدّ ذاته - نسيج مركّب من مفاهيم جزئيّة وتصوّرات فرعيّة، فلا وجود لمفهوم بسيط غير مركّب، لذلك؛ خليقٌ بنا أن نقوم بعمليّة تفكيك لمفهوم الفتنة السّياسيّة.

ثمّة - بلا شكّ - مقترحات عدّة للتّفكيك، ولاعتبارات البداهة والوضوح؛ سأعتمد على محاولة تفكيك تصوّرين فرعيّين متلازمين وملازمين لمفهوم الفتنة: السّلطة والحقيقة.

-1يقوم تصوّر السّلطة على ثلاث مسلّمات:

-هناك - دائمًا - شخص واحد محدّد هو الأحقّ بالسّلطة، على الأقل، ما دام هذا الشّخص على قيد الحياة، ولم ينكر حقّه بنفسه طوعًا أو كرهًا.

-لا تجوز منازعته في الأمر، وأمّا إذا نازعه أحد؛ فيُقتل بلا تردّد، وذلك درءًا للفتنة الّتي هي أشدّ من القتل.

-مدّة حكمه غير محدّدة في الزّمان، فلا يحدّها إلّا الموت، اللّهم إلّا إذا ظهر منه "كفر بواح."

-2يقوم تصوّر الحقيقة على ثلاث مسلّمات فرعيّة:

-ثمّة - دائمًا - حقيقة واحدة محدّدة؛ إذ ليس مقبولًا حدوث أيّ تسوية بينها وبين الحقائق المخالفة لها.

-هي موجودة بنحو موضوعيّ ومطلق؛ فلا تخضع لزاوية النّظر الشّخصيّة.

-الدّفاع عنها واجب أخلاقيّ وشرعيّ؛ بل تستدعي التّجنيد والتّجييش.

على أنّ المعالجة الفقهيّة لموضوع الفتنة ستكون إعادة دائمة لإنتاج الفتنة؛ فقد اعتمد الموروث الفقهيّ في خلاصته على محاولة ضبط مسألة السّلطة على أساس أحد الخيارين: إمّا السّلالة والنّسب، أو الغلبة والتّمكين، غير أن أهمّهما خياران غير قابلين للضّبط، هما:

أوّلًا؛ فإنّ السّلالة تخضع لتفريعات لا يمكن ضبطها أو تقنينه، وهذا ما يساهم في إعادة تأجيج الفتن مرّة بعد مرّة، لأسباب تتعلّق بالتفريعات السّلاليّة، ثمّ إنّ منطق النّسب والسّلالة يحيل إلى منطق القبيلة وليس إلى منطق الدّولة.

ثانيًا؛ فإنّ الغلبة تخضع لموازين قوى متغيّرة لدرجة السّيولة، ما يمنع من ضبط السّلطة وفق قواعد واضحة ومقنعة، فضلًا عن ذلك؛ فإنّ منطق الغلبة والتّمكين يحيل مباشرة إلى غرائز القطعان البدائيّة، يوم كان الذّكَر الغالب هو المستبدّ الأوحد بقيادة القطيع، إلى حين موعد العراك الدّمويّ القادم حول "القيادة"، مع ذَكَر منافس قد يكون من أقرب المقرّبين، وقد يأتي زاحفًا من الآفاق، وكان قدر المغلوب إمّا الموت الرّحيم أو المنفى الذّليل، وهكذا كان حال القادة والملوك والسّلاطين في العالم القديم، وكانت جواري القصر عندهم تعبيرًا رمزيًّا على هيمنة الذّكَر القائد على إناث القطيع.

بهذا المنطق الذي يحيل إلى الغرائز البدائيّة، لا يمكن ضبط مسألة السّلطة بمعزل عن الفتنة العنف والاقتتال، وفي محاولة ضبط سؤال الحقيقة؛ استند الموروث الفقهيّ - في مجمله - إلى أساس مرجعيّتين غير قابلتين للضّبط:

من جهة أولى؛ **النّصّ الدّينيّ**، وهو ما لم يحصل أيّ اتّفاق على تحديده، فما هو النّصّ الدّينيّ إذن؟ هل يتعلّق الأمر بالقرآن حصرًا، أم بالقرآن زائد المتن الحديثيّ، ثمّ زائد المتن الصّحابيّ، ثمّ زائد المتن التّابعيّ، ثمّ ماذا؟ وهل نقصد بالقرآن (كلّ ما هو مدوّن في المصحف العثمانيّ تحديدًا) أم نقصد حتّى الآيات التي تندرج ضمن ما نُسخ لفظه وبقي حكمه كما يقال؟ ثمّ إنّ النّصّ القرآنيّ حمّال أوجه - كما جاء في قول مشهور ومنسوب إلى علي بن أبي طالب - وبالأحرى؛ يبقى السّؤال، ما هو النّصّ الدّينيّ؟

من جهة ثانية؛ **مرجعيّة السّلف**، غير أنّ السّلف يصعب حصره وتحديده، وخلافاته لا تُعدّ ولا تُحصى في كلّ الموضوعات، ما يعني؛ أنّ السّلف لا يستطيع أن يمنح للمسلمين أيّ ضبط لمشروعيّة الحقيقة، بالأحرى، يبقى السّؤال مفتوحًا؛ من هم السّلف تعيينًا وتعدادًا؟

حيّ على الإصلاح

لا شيء يدمّر البيت أكثر من الألغام المبثوثة داخله؛ لأنّها تحطّمه بالكامل حين تنسفه من الدّاخل، لذلك؛ كان الغلوّ في الدّين أشدّ ضررًا على الدّين من الابتعاد عن الدّين، وبالعودة إلى موضوع الفتنة، إذا كان المتخيّل الفقهيّ يتحدّث عن "فتنة الدجال" في آخر الزّمان؛ فإنّ

الوجه الآخر لرمزيّة الدّجال؛ أنّه يرمز إلى أنّ "عدوّ الدين" قد يأتي لابسًا لبوس الدّين نفسه؛ بل قد يأتي بالمظهر الأكثر ورعًا وتديّنًا، ثمّ كانت فتنته الأشدّ خطرًا وضررًا، عمومًا؛ في رمزيّة الحكاية تحذير من أن أخطر أعداء الدّين يأتون من داخل الدّين بالذّات؛ بل قد يدّعون حمايته والدّفاع عنه، وبهذا النّحو يختلط الحابل بالنّابل فتعمّ الفتنة الدّينيّة، ويضيع الدّين في النّهاية، لذلك؛ دعنا نقول بلغة صريحة واضحة: الإصلاح الدّينيّ ضرورة دينيّة كذلك.

أ: الإصلاح النّظريّ

فيه مسألتان:

(1إصلاح الخطاب الدّينيّ وفق ثلاثة مرامي:

أوّلًا: تخليصه من المفاهيم الاحترابيّة المنحدرة من عصر التّوسّعات الإمبراطوريّة: الجماعة، الطّاعة، البيعة، الولاء والبراء، التّدافع، التّمكين، دار الحرب ودار الإسلام، أهل الذمّة، الجهاد، الخراج، الغنيمة، السّبي، ...إلخ.

ثانيًا: تخليصه من الانفعالات السّلبيّة المرتبطة بما أسميناه بالمرحلة القرآنيّة الثّانية، مرحلة ما بين الهجرة والفتح، وهي المرحلة الّتي كانت تتطلّب إثارة انفعالات الغضب، والغيرة، والتّوجّس، والحذر، والحيطة، ...إلخ، قبل أن يرسّخها العقل الفقهيّ لاعتبارات تتعلّق بالبناء الإمبراطوريّ للدّولة.

ثالثًا: تخليصه من الاستعمال السّحريّ في مواجهة العلم، والاستعمال الإيديولوجيّ في الصّراع على السّلطة.

(2إصلاح الرّؤية الدّينيّة وفق ثلاثة أهداف:

أوّلًا: يجب العمل على نقل مركز الثّقل الدّينيّ من الشّريعة إلى العقيدة، ذلك أنّ العقيدة هي جوهر الدّين وأساسه، طالما أنّها تختصّ بتوحيد الرّبوبيّة، أمّا الشّريعة؛ فإنّها مجرّد اجتهاد للفقهاء كما قلنا، وكما نردّد دائمًا.

ثانيًا: يجب العمل على إعادة نقل مركز الثّقل النّصّيّ من الصّحاح إلى المصحف؛ ذلك أنّ الخطاب القرآنيّ هو الذي يختزل جوهر العقيدة (الشّعائر التّعبّديّة والقيم الوجدانيّة)، والحقّ يقال، حين نقارن الخطاب القرآنيّ بسائر الموروث الدّينيّ نجده الأقرب إلى العقل، وحقوق المرأة، وحقوق الأقلّيّات، واحترام مبدأ الحياة، فمثلًا؛ حين نقارن بين صورة النّبيّ في الخطاب القرآنيّ، وصورته في الموروث الدّينيّ؛ نجد النّبيّ في الخطاب القرآنيّ بلا معجزات، بلا كرامات، بلا عصمة عن الخطأ؛ إذ كثيرًا ما أخطأ فعاتبه الوحي، وكلّ هذا في تناقض صارخ مع صورته في المتن الحديثيّ؛ حيث يظهر ركام عجيب من المعجزات

والكرامات والخرافات، وأيضًا، نجد الفارق كبيرًا جدًّا حين نقارن بين صورة المرأة في الخطاب القرآنيّ (الحاكمة الحكيمة بلقيس مثلًا)، وصورة المرأة في خطاب الموروث الدّينيّ (حيث لا تصلح للحكم ولا للحكمة ولا لأي شيء آخر عدا الإنجاب)؛ بل سيكون الأمر كذلك حتّى حين ننظر داخل الخطاب القرآنيّ (في قصّة أهل الكهف مثلًا)، إلى قيمة حيوان مشهود له بالوفاء والإخلاص، لكنّ الموروث الفقهيّ نبذه نبذًا مريبًا (هو الكلب.(

ثالثًا: يجب العمل على نقل مركز الثّقل الفقهيّ؛ من استنباط الأحكام التّشريعيّة إلى استنباط القيم الوجدانيّة، وكما قلنا سابقًا: "إنّ الأحكام التّشريعيّة ليست مطلقة؛ بل مقيّدة بالشّرط التّنزيليّ وسياق المسألة، وفي المقابل؛ ثمّة قيم وجدانيّة قويّة تهمَّش عنوة (العفو، الرّحمة، الغفران، ...إلخ.(

ب: الإصلاح العمليّ

سيترجم الإصلاح العمليّ ذلك الجهد إلى برامج يصوغها الخبراء وأهل الاختصاص في مجالات التّربية والتّعليم، وخطب الجمعة، والبرامج الدّينيّة التّلفزيّة، ...إلخ، عمومًا؛ بوسعي تقديم بعض المقترحات حول ما يمكنني أن أصطلح عليه بالإصلاح المسجديّ.

أفكار حول الإصلاح المسجديّ

المسجد - شأنه شأن سائر المؤسّسات - قد ينحرف عن وظائفه أحيانًا، وقد يتخلّف عن الرّكب العامّ للتّطوّر الحضاريّ عندما ينحرف، فلا شكّ في أنّه يحتاج إلى الإصلاح، وحين يتخلّف؛ لا شكّ في أنّه يحتاج إلى التّحديث، وأمّا عندما ينحرف ويتخلّف؛ فإنّه يصبح أداة لتعطيل العقل والخروج عن ثقافة القانون، وأمّا عندما يحتاج المسجد إلى الإصلاح ولا يُصلَح، حين يحتاج إلى التّحديث ولا يُحدَّث، حين يحتاج إلى العقلنة والتّقنين ولا يُعقلَن أو يُقنَّن؛ فإنّه سرعان ما يتحوّل إلى عائق كبير في وجه الإصلاح والحداثة والعقل والقانون، وأقترح - في هذا الصّدد - خمسة مجالات للإصلاح المسجديّ:

أوّلًا: بالنّسبة إلى أئمة المساجد:

-تحسين ظروفهم الاجتماعيّة والمهنيّة، والنّهوض بأنظمة الخدمات الصّحّيّة والاجتماعيّة والتّرفيهيّة للقيّمين الدّينيّين.

-منح الخطباء فرصة تكوين أساس يقوم على التّعريف بتاريخ الإسلام بكلّ ما يحمله من إنجازات علميّة، وفتن سياسيّة، وروائع أدبيّة وصوفيّة، ونكبات حقوقيّة، ومآسي إنسانيّة، فضلًا عن الاطّلاع على اختلاف المفسّرين والمتكلّمين في مسائل العقيدة والشّريعة، بعيدًا

عن أساطير "وحدة المذهب" والعقيدة الصّحيحة" ...إلخ، وذلك حتّى يكتسب الخطيب القدرة على تنسيب الآراء والأحكام، وامتلاك القدرة على التّنسيب هي أعزّ ما يُطلَب الآن.

-ضمان تكاوين دائمة ومستمرّة يشرف عليها خبراء في القانون، وذلك لتمكين الخطباء من ضبط قوانين البلد الّذي يشتغلون فيه، ولنا في قصص القرآن متّسعًا رمزيًّا لاستنباط ما يكفي من القيم الّتي تمجّد الأمن والتعاون.

-ضمان تكاوين عصريّة يشرف عليها خبراء حقوقيّون، لغاية تمثّل المبادئ الكونيّة لحقوق الإنسان، وحماية البيئة، وحقوق الأقلّيّات، والطّفل، ...إلخ.

-تجريم كلّ أشكال اللّجوء إلى الشّعوذة تحت أي مسمّى، كيفما كان (الطّبّ البديل، الطّبّ الرّوحانيّ، الطّبّ النّبويّ، الرّقية الشّرعيّة، ...إلخ) الّتي تمثّل - في آخر المطاف - تهديدًا للصّحّة العامّة في بعدها النّفسيّ والجسديّ.

-تجريم كل أشكال التحريض على الكراهية على أساس الدين أو المذهب أو الجنس أو العرق، والتي تمثل تهديدا للأمن العام، ووحدة النّسيج الاجتماعيّ.

-تحديد قدر معيّن من أموال الصّدقة أو الزّكاة أو التّبرّعات الّتي يحقّ لإمام المسجد الحصول عليها، أو إعادة توجيهها وفق ضوابط القانون، وحاجيّات المجتمع المحلّيّ، وذلك تحت طائلة قانون "من أين لك هذا؟"، وهو القانون الّذي لا يجب أن يتحرّج من أصحاب العمائم.

ثانيًا: بالنّسبة إلى بناء المساجد:

-نظرًا إلى أنّ تكاثر المساجد، أو ما يسمّى بالمساجد، يأتي على حساب جودة "بيوت الله"، ومعاني الصّلاة، وكرامة المصلّين، ويساهم في مظاهر الانفلات الوظيفيّ والأمنيّ، فإنّنا نقترح ضبط إيقاع بناء المساجد على أساس نوع من التّناسبيّة السّكانيّة، مثلًا؛ تحديد مسجد واحد بكامل مواصفاته الفنّيّة والجماليّة والصّحّيّة المطلوبة لكلّ نسبة معيّنة من السّكان المسلمين الممارسين للدّيانة.

ثالثًا: بالنّسبة إلى صلاة الجماعة في المساجد:

-حول مسألة الازدحام: لأجل تفادي الازدحام أثناء بعض الصّلاة، الّذي يقود - أحيانًا - إلى احتلال الشّوارع المجاورة وغلق الطّرقات من طرف المصلّين، وهي صورة قد لا تبدو مهذّبة؛ يمكن اعتماد الاقتراح الآتي: بالنّسبة إلى صلاة الجمعة والأعياد، وكذلك بالنّسبة إلى

كل صلاة من الصلوات الّتي تشهد ازدحامًا اعتياديًّا، يمكن إجراؤها مرّتين أو ثلاث مرّات بالتّناوب، وفي فترات تتفاوت بنحو ساعة أو نصف ساعة.

-حول مسألة الاختلاط: ليس يخفَى أن صور النّساء المصلّيات في المساجد خلف ستار مغلق، أو في أقبية أو سراديب خاصّة، أصبحت تحطّ من كرامة المرأة المسلمة أمام أنظار العالم، علمًا بأن الجميع يعرف بأن السّتار الفاصل بين النّساء والرّجال لم يكن في زمن الرّسولﷺ، ولا كان في زمن الخلفاء الأوائل؛ إنّما هو من المحدَثات الّتي يسهل إبطالها، لا سيّما أنّ الحجّ نفسه - وهو أعظم مقام - لا يُفصَل فيه بين الجنسين (رغم علمنا بوجود بعض متأخّري السّلفيّة ممّن يحاولون - اليوم - دفع الأمور إلى هذا الاتّجاه)، والحمد لله أنّ هؤلاء لم يظهروا في زمن السّلف، وإلّا لفرضوا الفصل الكامل بين الجنسين، وارتداء النّساء للنّقاب أثناء أداء الشّعائر المقدّسة!

رابعًا: بالنّسبة إلى خطب المساجد:

-ليس من المبالغة القول: إنّ صورة الخطيب واقفًا بعصاه الّتي يدقّ بها بين الفينة والأخرى، ويصرخ في المصلّين - رغم وجود مكبّر الصّوت - لم تعد صورة مشرّفة اليوم، وفي المقابل؛ فإن جلوس الإمام على المنبر سيساعده في الحفاظ على الهدوء وضبط الانفعالات، وسيحفظ له قدرًا من الحكمة والوقار.

-الملاحظ - أيضًا - أن لبعض الخطباء ميلًا غريزيًّا إلى التّطويل والإطناب، وهذا ما لا يتناغم مع الإيقاع السريع للحياة المعاصرة، فضلًا عن أنّ التّهييج الغوغائيّ يأتي - عادة - من فرط الإطالة في الكلام، لذلك؛ يمكن اعتماد المقترح الآتي: تحديد سقف زمنيّ لكلّ خطبة لا يتعدّى - على أبعد تقدير - خمس عشرة دقيقة.

خامسًا: بالنّسبة إلى الآذان في المساجد:

-لا شكّ في أن تفاوت أصوات آذان المساجد المتقاربة الّتي قد تقترن بضعف جودة المواصفات الصّوتيّة والفنّية، يخلق نوعًا من الضّجيج والبلبلة في كثير الأحيان، ويترك في النّفوس - لا سيّما الأطفال - أثرا عنيفًا، وهذا ممّا ليس يخفى عن النّاس، لكنّ معظمهم لا يعترفون، أو يتحرّجون، والأصل أن الله تعالى قال: {مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحجّ: (78)]، لذلك؛ نقترح - ضمن الرؤية الإصلاحيّة - توظيف تقنيات التّواصل الحديثة وربط المآذن في المستوى المحلّيّ والجهويّ بشبكة صوتيّة ذات مركز صوتيّ واحد، وبمواصفات فنيّة عالية الجودة.

الخلاصة إذن؛ هذه المقترحات لا تتطلّب الكثير من المال، لكنّها تتطلّب غير قليل من الإرادة، وهذه المقترحات ينطبق عليها قول بائع المصاحف في الطّرقات حين يقول: ثمنها صغير وأجرها كبير عند الله.

ثلاث توصيات في الأخير

أوّلًا: ضرورة انفتاح الحقل الدّينيّ على التّصوّف النّظريّ، لا سيّما في مجال التّربية والتّعليم، لماذا؟ لأنّ علاقة التّصوّف النّظريّ بالذّات الإلهيّة تقوم على أساس الحبّ بدل الخوف، وأنا - هنا - لا أتكلم عن الطّرقيّة، وإذ يمنحنا الخوف أخلاق العبيد، أخلاق النّفاق والتّقيّة والتّكتّم والمكيدة؛ فإنّ الحبّ يعلّمنا الصّدق والشّفافيّة والنّزاهة والوضوح.

ثانيًا: معاودة انفتاح الحقل الدّينيّ على الفلسفة الإسلاميّة، لماذا؟ لأنّ علاقة الفلسفة الإسلاميّة بالدّين قامت على أساس البرهان العقليّ، بدل التّسليم السّمعيّ بالرّوايات والأخبار، وهو التّسليم الّذي قاد - في النّهاية - إلى تعطيل الفكر واستقالة العقل.

ثالثًا: انفتاح الحقل الدّينيّ على كلّ الاجتهادات الدّينيّة الّتي أقصاها من ذاته، واستبعدها من دائرته عنوةً، أو تركها - أحيانًا - للفلسفة أو لحقول معرفيّة أخرى، ثمّ ما انفكّ يهمّشها بدورها، بدعوى لزوم الجماعة ووحدة العقيدة: الجهميّة، القدريّة، المعتزلة، الزّمخشري، ابن رشد، ابن عربي، ...إلخ، بمعنى؛ أنّ العقل المسلم عليه أن يتصالح مع كلّ المكوّنات الّتي بترها من كيانه، وطردها من دائرته، وقد كانت - في يوم من الأيام - جزءًا من مجاله الحيويّ، عليه - إذن - أن يستردّ خصوبته وتنوّعه وانفتاحه.

على المسلم أن يتصالح مع مكوّناته كافّة.

-عليه أن يتصالح مع المرأة، بعد أن ظلّ ينظر إليها نظرة توجس، معتقدًا أنّها تمثّل أغلب أهل الجحيم، وأنّها حطب النّار، وعورة في الدّنيا، وناقصة عقل ودين.

-عليه أن يتصالح مع العقل، بعد أن ظلّ يظنّه مدخلًا إلى الكفر والزّندقة والإلحاد، على قاعدة: (من تمنطق تزندق.(

-عليه أن يتصالح مع الجسد، ومع الطّاقة الحيويّة الّتي يمنحها الجسد للإنسان، فقد دأب على عدّه مجرّد نجاسة وجنابة وحفنة من طين، وأنّ العين تزني، واليد تزني، وكلّ شيء في الإنسان يزني.

-عليه أن يتصالح مع الجمال، بعد أن اعتاد على اعتبار الفنون الجميلة وقيم الجمال مجرّد شرك بالله، وفساد في الأرض، وضياع للعفّة والدّين.

-عليه أن يتصالح مع الحياة، فقد ضيّع الكثير من فرص التّقدم والازدهار، وهو يرى الحياة مجرّد لعنة وابتلاء، وأنّها لا تساوي عند الله حتّى "جناح بعوضة!"

-عليه أن يتصالح مع ذاته - أوّلًا - وقبل كلّ شيء، فقد خاصمها كثيرًا وأنكرها طويلًا، واعتاد على التّعوّذ من شرور النّفس في كلّ أعماله وأفعاله وأحلامه، فلم يبق له من أحلام في الحساب الأخير غير الأضغاث والكوابيس.

-عليه - أخيرًا - أن يتصالح مع طبيعته البشريّة.

-ماذا بعد؟

آه، لعلّي نسيت، ربّما عليّ أن أتصالح - بدوري - مع أمّي.

شكرًا على نباهتكم، شكرًا على انتباهكم.

عن "النفاق الديني"

النفاق هو أن تبرّر َأنَّ كوارثَنا ومصائبَنا هي لبُعدِنا عن الله ، رغم أننا أكثرُ شعوبِ الأرض إيماناً بوجودِ اللهِ وعبادةً له, وأنْ تُرْجِعَ فشلَنا إلى أنّ نساءنا كاسياتٌ عاريات،رغم أنهُنَّ أكثرُ نساءِ البشرِ تغطيةً لأجسادِهِن, وأنّ سببَ بؤسِنا هو غضبُ اللهِ و سخطُهُ علينا..
تطبيقُنا للمَنطِقِ نفسِهِ سيقودُنا إلى أنَّ أزدهارَ أمريكا، و قوةَ أوروبا هو لرضا الله ونعمَتِهِ عليهما..!!

النفاقُ، هو أن تعلمَ عِلْمَ اليقينِ ،وبالأرقام، أنَّ المجتمعاتِ الأكثرَ تَدَيُّناً في العالم هي أيضاً الأكثرُ فساداً في الإدارة, والأكثرُ اِرْتِشاءً في القضاء, والأكثرُ كذباً فى

السياسة, والأكثرُ هدراً للحقوق, والأكثرُ تحرُّشاً بالنساء, والأكثرُ اعتداءً على الأطفال, ثم تقول للناس : "إنَّ سببَ فسادِ الأخلاقِ هو نقصُ الدين..!! "

النفاقُ هو أن ترى أفغانستانَ وباكستانَ ومصرَ تزيدُ نِسَبُ التحرُّشِ فيها عن 90%، ثم تقول: إنَّ سببَ التحرُّشِ هو ملابسُ المرأة..!!

ليس هناك مِنْ نِفاقٍ أسوأُ مِنْ أنْ تُطالِبَ بتطبيقِ الشريعةِ فى بلدكَ،ثُمَّ تهاجرُ للعيشِ فى بلدٍ عَلْمانِيّ..

ليس هناك مِنْ نِفاقٍ أوْقحُ مِنْ أنْ تُطالِبَ بزيادةِ موادِّ الإسلامِ في المِنهاجِ الدِّراسيّ، ثم تُسَجِّلُ أبناءَك فى إحدى مدارسِ البعثةِ الفرنسيةِ أو الأمريكيةِ أو البريطانية..

ليس هناك من نفاقٍ أحقرَ من أنْ تُحرِقَ العلمَ الأمريكيَّ في كُلِّ مناسبةٍ، أو دونها، ثُمَّ تقفُ فى طابورِ سفاراتِها أوقنصلياتِها، لأجلِ الحصولِ على تأشيرةِ الدخول..

◦النفاقُ هو ألّا تكترثَ لِفسادِ الرشوةِ والتهرُّبِ الضّريبي وتبييضِ الأموال, وفسادِ جهازِ القضاء , وفسادِ الغِشِّ فى السِّلَعِ والمُنتَجات , وفسادِ مافياتِ المخدِّرات وتهريبِ البضائع , ثم ترى الفسادَ كُلَّ الفسادِ فى مجرَّدِ تنورةٍ أو سِرْوالٍ قصير، أو قُبْلَةٍ في لوحةٍ مشهورة..

النفاقُ هو أن ترى أنجيلا ميركل تُسْعِدُ شعبَها , وتيريزا ماي تتولى رئاسةَ الحكومةِ البريطانية, وترى الكثيرَ من السيداتِ اللواتي تَحْكُمْنَ العالمَ في أوروبا وأمريكا الشماليةِ والجنوبيةِ وأُستراليا وشرقِ آسيا وأفريقيا, وصندوقِ النقدِالدَّوْلِيّ،ومحكمةِ العدلِ الدولية، ومعظمَ منظماتِ الأممِ المتحدةِ تَتَوَلّاها سيدات, وتشاهدَ وزيراتِ الدفاعِ في النّرويج والسوَيُدِ وهولندا وألمانيا وإسبانيا واليابان, ثم تقول: إنَّ المرأةَ لا تصلُحُ للعملِ العام.!!

النفاقُ هو أنْ تَعْتَبِرَ كُلَّ نِساءِ الأرضِ ناقصاتِ عقلٍ ودين, وعوراتٍ, وحبائلَ الشيطان, وحطبَ جهنّم, إلّا أُمَّك، فإنَّ الجنةَ تحتَ أقدامِها.!!

تَخَلُّفُنا ليس بسببِ بُعْدِنا عنِ الدِّين، فالأممُ المُلْحِدَةُ المتقدمةُ ليس لَدَيْها دِين.

ولكنَّ تَخَلَّفَنا لِأنَّنا لا نأخذُ بأسبابِ التّقَدُّمِ والتَّطوُّر, وفشلَنا لفسادِنا وفسادِ القائمينَ علينا؛

◦ورَجْعِيَّتَنا لِأنَّنا بعيدونَ عنِ العِلْمِ و العلومِ والتعليم, وبؤسَ حالِنا لِأننا أُمّةٌ تَظُنُّ أنَّ اللهَ لَمْ يَهْدِ سواها..!!

إذا نزلَ مؤمنٌ وكافرٌ إلى البحرِ، فلا ينجو إلَّا مَنْ تَعَلَّمَ السِّباحة، فاللهُ لا يُحابي الجُهَلاء..

◦النفاقُ هُوَ أنْ تَجْبُنَ عنْ قَوْلِ الحّقِّ وتُحابِي الباطل...

جرائم "سعيد ناشيد" في حق قراء جريدة "الصباح"

طارق الحمودي*

سئل الكاتب سعيد ناشيد عن مبادرة "خارجون عن القانون" للمطالبة بالحريات الفردية، والتي تدعو إلى إباحة ممارسة الزنا والشذوذ الجنسي كما تفعل قرود وخنازير الغابة أو بهائم وحمير الزريبة -كما في صحيفة الصباح عدد 6021- فأجاب -في حيدة لئيمة- عن موقف الدين من الحريات الفردية..!!

سئل الرجل عن مبادرة "خروج عن القانون" فأجاب عن موقف الدين!! وهو تهرب واضح من سؤال محرج، وهذا يوحي بأنه موافق على مبدأ التمرد العلني على القانون، فإنه لم يُبد أي تحفظ على مصطلح "خروج عن القانون"، وعوض ذلك اختار سعيد -وهو أحد الدعاة إلى "الديانة العلمانية"- أن يتحدث عن موقف القرآن من "الحريات الفردية"، فادعى أنه "مؤسس للحريات الفردية"، ومؤكد على أن "الفرد هو الأصل"، وبدأ بقوله تعالى "لا تزر وازرة وزر أخرى" ثم "لكل نفس ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت"، و"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"، والغريب أن هذه الآيات تبين أن هناك "وزرا" و"غيا"، وهو عين ما تدعو إليه مبادرة "الحريات الفردية في ممارسة الزنا والشذوذ الجنسي" ما يدعو إليه سعيد وجماعته!

أبدى رشيد معارضة للمفهوم الديمقراطي "للجماعة" زاعما أنه ضد "الحريات الفردية"، وهو يعلم أو لا يعلم أن مفهوم "الجماعة" مفهوم أساس في الخطاب الديمقراطي الحداثي، وعليه تقوم أدبياته، فالفرد تابع لاختيارات الجماعة أي الأغلبية، محكوم بنمط عيشها العام وقوانينه المنظمة، وهذا يوحي بأن سعيد متمرد على "ديمقراطيته" و"حداثته"، ولذلك كذب حينما زعم أن الحريات الفردية أساس الحداثة، وما يدعيه هذا الرجل مخالف لما قرره علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وغيره من أنه لا يجوز الحديث عن "فرد" في مقابل "جماعة"، لأن المفهومين متداخلان، فالفرد هو لبنة الجماعة، والجماعة هي شرط "الفرد" ومحدده، وهذا التفريق مناورة أو جهل بحقيقة الأمر.

الأمر الإيجابي في حوار سعيد ناشيد، هو أنه كان يحيل إلى القرآن والإسلام، وهذا نوافقه عليه، ولذلك ننصح جماعته بالعودة إلى القرآن للنظر في أسس الحريات الفردية ومعالمها وحدودها، بعيدا عن "الخروج عن القانون"، هذا إن كان سعيد صادقا في إحالته إلى القرآن في مسألة "الحريات".. لكن الحقيقة أن سعيدا كان يكذب على قراء "الصباح" ويمارس إحدى العبادات المفضلة عند أتباع "الديانة العلمانية" ..."النفاق"، فقد صرح في بعض كتبه بتشجيعٍ من بعض المستشرقين بأنه «لا يجوز لنا بأي حال من الأحوال أن نقيم القرآن بمقاييس الحداثة السياسية والثورة العلمية وحقوق الإنسان، ولا يجوز لنا أن نتعامل معه كنص في العلم أو السياسة أو الأخلاق، وإذا فعلنا ذلك فإننا سنقترف جرما كبيرا وسنظلم القرآن ظلما عظيما»، وهذا يعني أن الإحالة إلى القرآن في المقال كانت تدليسا ونفاقا.

هي إذن أربع جرائم، إقرار مبدأ "الخروج عن القانون"، والإحالة إلى القرآن في مسائل الحريات، والنفاق الفلسفي، وإقرار الدعوة إلى الزنا والشذوذ الجنسي.

*** باحث متخصص في "الديانة العلمانية"**

سعيد ناشيد: نمط التدين الموروث لم يعد مناسبًا للدولة الوطنية

ري المفكر المغربي سعيد ناشيد، أن نمط التدين الذي ورثناه عن فقه عصر التوسعات الإمبراطورية لم يعد مناسبًا لزمن الدولة الوطنية، بل بات يمثل تهديدًا صريحًا للأمن والسلام، وأشار في حواره لـ"الدستور" إلى ضرورة تخليص الخطاب الديني من المفاهيم القديمة من قبيل "الطاعة، والبيعة، والجماعة، وأهل الذمة، والولاء والبراء، ودار الحرب ودار الإسلام."

وحول إمكانية أن تتحول تنظيرات تجديد الخطاب الديني إلى واقع ملموس، قال إن ذلك ممكنًا عندما تُترجم التنظيرات إلى برامج إصلاحية واقعية فيما يخص خطب الجمعة، ومناهج التعليم الديني، وبرامج الإعلام ذي الصبغة الدينية، لافتًا إلى أن ثمة علماء دين بدأوا ينتفضون ضد "الجهل المقدس" لأجل الإصلاح الديني، وإلي نص الحوار:

ـ يذهب مفكرون إلي أن القهر والتعذيب الذي تعرض له دعاة "الإسلام السياسي" هو سبب تنامي ظاهرة الإرهاب.. كيف تري الأمر؟

***إذا كان الحكام الذين دعموا الإسلام السياسي لم يسلموا من غدره في لحظات الشعور بالتمكين (أنور السادات، بيناظير بوتو، إلخ)، فهذا يعني أن المآل لا يتعلق بسوء المعاملة أو حسنها، وأن الأمر يصعب تفسيره بمنطق الفعل ورد الفعل، ولا يخفى على أحد أن "الجهاديين" يتمتعون بقدر كبير من الحرية والكرامة الإنسانية داخل المجتمعات الغربية، ورغم كل ذلك لا يتورع كثيرون منهم عن التسبب في مشاكل أمنية مجانية.**

ولذا يمكنني القول، إن المعضلة أعمق من المستوى السياسي أو الاقتصادي؛ فهى تكمن تحديدًا في مستويات اللاشعور الجمعي، وأقصد بذلك وجود حالة مرضية بلغتها مجتمعاتنا جراء الشعور بالهزيمة والعجز والفشل، وتغول الانفعالات السلبية داخل الخطب الدينية في غالبية المساجد، ومناهج التعليم الديني، فضلاً عن أدعية الحقد والكراهية والتي تنمي الانفعالات السلبية.

ــ في كتابك "رسائل في التنوير العمومي" قدمت روشتة لعلاج مظاهر التدين الشكلي, والتطرف الديني الذي لم يحمل سلاحًا بعد, متي يمكن أن تتحول هذه الرسائل لواقع علي الأرض؟

***سيتحقق ذلك عندما يدرك الجميع حاكمين ومحكومين بأن نمط التدين الذي ورثناه عن فقه عصر التوسعات الإمبراطورية لم يعد مناسبًا لزمن الدولة الوطنية، بل بات يمثل تهديدًا صريحًا للأمن والسلام، وسيتحقق ما رميت إليه في "التنوير العمومي" عندما يدرك الجميع أن الإصلاح الديني مطلب أمني وتنموي، وهو بعد كل ذلك حاجة حيوية لأجل حفظ الدين نفسه.**

ـ متي وكيف يتحرر الله من أسر الفقهاء والمتطرفين؟

***لأجل استرداد الله الذي اختطفه الفقهاء والمتطرفون لابد من تحديث الخطاب الديني، لابد من تخليص الخطاب الديني من مفاهيم القدماء، مثل الطاعة، والبيعة، والجماعة، وأهل الذمة، والولاء والبراء، ودار الحرب ودار الإسلام، إلخ.**

لابد من تخليص الخطاب الديني من الانفعالات السلبية، من قبيل انفعالات الغضب والغيرة والثأر والخوف، والتي يعتبرها بعض الخطباء -ويا للأسف- من أخلاق المؤمن؛ إذ يكثرون من ترديد عبارة "الغضب لله"، و"الغيرة لله"، و"الخوف من الله"، بينما حين يملأ الغضب أو الغيرة أو الخوف القلب لا يترك فيه لله من مكان؛ فهذه في آخر المطاف

بمثابة انفعالات سلبية سرعان ما تنتهي إلى تدمير القدرة على العيش المشترك.

ـ هل مطلب العلمانية يتماشي ومجتمعاتنا العربية؟

***معنى العلمانية أن تقف الدولة على مسافة واحدة من كل الأديان والمذاهب والتيارات الدينية، أي ما يسمى بالحياد الديني والمذهبي للدولة.**

دور الدولة بشكل عام هو تحسين ظروف الحياة الدنيوية، من قبيل شق الطرق، وتشييد القناطر، وبناء المصانع، إلخ، وكل هذا لا يتحقق إلا في الحياة الدنيا، ثم أننا نطالب الدولة بهذه الأشياء حتى مع علمنا بأنها في الدنيا تنفع "المؤمن الناجي" و"الكافر الهالك" على حد سواء، ولن تنفع "المؤمن الناجي" في الآخرة. بل ندرك بالحس السليم بأن الحياة في الآخرة ليست مهمة الدولة بأي حال من الأحوال، وليست مهمة الآخرين في آخر الحساب، بل كل شخص مسئول عن رهانه بمفرده طالما (لا تزر وازرة وزر أخرى)، وأن لا أحد يملك اليقين حول مآله الأخروي مهما فعل، أو ظن أنه فعل. أعتقد أن هنا بالذات يكمن مبدأ المرجئة قديما (فرقة من فرق علم الكلام.(

ـ كيف تتحول تنظيرات الإصلاح الديني لواقع ملموس؟

***سيصبح ذلك ممكنًا عندما تُترجم التنظيرات إلى برامج إصلاحية واقعية فيما يخص خطب الجمعة، ومناهج التعليم الديني، وبرامج الإعلام ذي الصبغة الدينية، ونحو ذلك. البوادر بادية، وثمة علماء دين بدأوا ينتفضون ضد "الجهل المقدس" لأجل استرداد إنسانيتهم. لكن ينتظرنا الكثير من الجهد والعمل.**
قلت "إذا لم تكن لديك حلولا لمشاكل الناس فقل لهم: الإسلام هو الحل, لن يفهموا ولكن لا أحد سيجرؤ علي الاعتراض!"

"الإسلام هو الحل"، هذا هو الشعار الذي سوق له الإسلام السياسي سواء في المغرب أو مصر أو في كل مكان، أن تقول "الإسلام هو الحل" معناه ألا يكون لديك أي حل، بل معناه ألا تكون لديك أصلًا أي مسألة واضحة، لأن ادعاء أن الإسلام هو الحل يقتضي طرح السؤال أولا: أين المسألة؟ أن ترفع شعار الإسلام هو الحل، بمناسبة أو بدون مناسبة، معناه أنك فقط تريد أن تحرج المسلمين بالإسلام تمامًا مثل ذلك الشخص الذي يقول لك "إن شاء الله" لكي لا يلزم نفسه بأي وعد نهائي، أو برنامج عمل واضح، وفي آخر المطاف هو يريد أن يخرسك باسم مشيئة الله. هذا هو مغزى الإحراج بالدين.

ـ ما هو دور المثقف في المواجهة الفكرية للإرهاب؟

***دوره الأساس هو التنوير العمومي. وهذا أعز ما يطلب في هذه الظروف المشحونة بالفتن والحقد والكراهية، لم يعد المثقف التنويري تعوزه الوسائل، فهى متوفرة في زمن ثورة المعرفة والتواصل، يحتاج فقط إلى الأسلوب المناسب والذي أختزله في ثلاث كلمات: البساطة، الوضوح، والمصداقية.**

كتاب السلام عليكم خطاب إلى المسلمين

عن الكتاب

يتوجّه سعيد ناشيد بهذا الكتاب إلى المسلم الحائر إزاء الظروف الصعبة التي يعيشها مادياً وروحياً... ظروف ناتجة عن هيئة خطاب ديني يقوم على أفكار الخوف والتخويف من عذاب الله، ومن عذاب القبر، ومن أهوال القيامة، ومن كيد النساء، والطاغوت. خطاب يقوم على منطق الطاعة، وأن السلف أفضل من الخلّف، والمسلم أفضل من الذمّي، والحاكم أفضل من الرعيّة... خطاب يركّز على مفاهيم: دار الحرب ودار الإسلام، الولاء والبراء، التدافع، الإحتراب، الغنيمة، السبي... يعتبر ناشيد أننا لكي نواجه أسباب تخلفنا يجب أن تكون لنا الجرأة على مواجهة هذا الخطاب، ورفض الجرائم التي اقترفت ولا تزال تُقترف باسم الإسلام: "لكي تحفظوا دينكم، عليكم العمل على تحرير الدين من الخطاب... فمن أجل حفظ الدين يحتاج الخطاب الديني إلى آليات النقد بلا أدنى تردّد... ذلك أن الخطاب الديني السائد في مساجدنا ومجالسنا ومدارسنا لا ينمّي لدينا القدرة على التفكير الحرّ، والمحبّة الصادقة، والإحترام المتبادل، بل عكس ذلك، خطاب يراهن على تأجيج مشاعر الرهبة والترهيب من كل شيء وينمّي ثقافة التسليم والطاعة والخوف...". في هذا الكتاب دعوة إلى التخلص من مشاعر الخوف والكراهية، باعتبارها مشاعر انحطاط، والتمسك بالدين الفطري الإنساني الكامن في الضمير والوجدان، والذي يقوم على محبة الله وليس الخوف منه.

كتاب قلق في العقيدة – سعيد ناشيد

4مارس، 2017

هذا الكتاب محاورَات تُحاول المساهمة، بقدر المتاح، في بناء تصور للإصلاح اللاّهوتي، يسمح بنهوض الذات ورقي الطبائع والوجدان وبإشاعة تصور جديد لعلاقة الإنسان بالعقيدة وبالأديان، محاورات أجراها المؤلف وأمضاها في موقع الأوان مع نخبة مع المحاورين الأشدّاء والأكفاء.
تراهن هذه المحاورات على عودة المثقف الإصلاحي إلى أسلوب المحاورات السّقراطية، وتدعونا إلى إستكشاف نمط جديد من إنتاج المعرفة، قائم على المشاركة والتواصل بدل الإنكفاء في أبراج وهم الإستعلاء الثقافي، لا سيما وقد انكشفت أمامنا اليوم ساحة عمومية (آغورا) جديدة، اسمها الإنترنت، فلا عذر لمن تأسرهم أسطورة الذات المنتجة للمعرفة، ولا عذر لمن يطلب الإنكفاء سبيلاً أو يبتغيه بديلاً.
تحتفي هذه المحاورات بآداب الحوار ويقيم الحب وأخلاق العيش، وهي قبل ذلك تحتفي، أو تحاول الإحتفاء، بثقافة النزوع نحو التنسيب والتشكيك والقدرة على العيش الحرّ بلا حقائق مطلقة ومن دون يقين ثابت يعتقل العقل ويشلُّ الإرادة، إنها دعوة صريحة إلى إستبدال شرائع الخوف والعُنف بشعائر العشق والحب والحرية.

سعيد ناشيد..الموروث الفقهي أدى إلى "عسكرة" المفاهيم الدينية

نَبَّهَ سعيد ناشيد المفكر الديني إلى خطورة الخطاب الإعلامي الذي يتلقاه الشباب من طرف عدد من الشيوخ و الدعاة عبر وسائل الاعلام، و الذين يستعيضون عن الخطاب المباشر في التحريض على العنف و التطرف بمفاهيم قد لا يتنبه إليها كثيرون و التي تعمل على الدفع بالشباب إلى تبني الفكر المتطرف.

ووقف ناشيد خلال الندوة الفكرية التي نظمتها جمعية "درر" للتنمية و الثقافة بتطوان اليوم السبت على أهم المسلمات التي يتبناها خطاب الفكر المتطرف، و منها تصور الحياة على أنها صراع عنيف و تناحر بين الحق و الباطل، و التي تكون لها انعكاسات واضحة و سريعة و خطيرة تمس بشكل مباشر كل مفاهيم التوافق و التسامح.

و اعتبر ناشيد أن من خلفيات هذه المسلمات هو الموروث الفقهي الذي ينطوي على هذا الصراع، و الذي يُجْمِعُ على أن الوظيفة الأولى و الأساسية لـ"الخليفة"/الدولة هي "الجهاد" و حماية الثغور، و هو ما يشكل محط إجماع فقهي، وهو ما أدى بحسب ناشيد دائما، إلى "عسكرة" مفاهيم الدين.

و أوضح ذات المتحدث أن "الإسلام السياسي" بمختلف تلاوينه عمل على تطوير هذه الفكرة، بل و عمل على محو كل القيود الموضوعة على "الجهاد"، إلى درجة أن البعض يعتبر القتال/"الجهاد"، فرض عين على المسلمين، و هو ما يتعارض و القراءة الصحيحة للخطاب القرآني.